رامي أحمد

وهـــــــم

رامي أحمد

رواية: وهم
المؤلف: رامي أحمد

تدقيق لغوي: لخضر بن الزهرة
تنسيق وإخراج داخلي: لخضر بن الزهرة
تصميم الغلاف: عبير محمد طوسون
رقم الإيداع: 25720 / 2019
الترقيم الدولي: 978/977-85607-6-3
الطبعة الأولى: 2019
رئيس مجلس الإدارة: أ. د. محمود محمد السعيد
المدير العام: هالة البشبيشي

بريد إلكتروني: info@alhalapublishing.com
تليفون : 01110161117
العنوان: 26 ش 261 المعادي الجديدة
صفحة الفيسبوك: مركز الهالة الثقافي
https://www.facebook.com/alhalapublishing

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للدار، ولا يحق لأي شخص أو مؤسسة أو جهة إعادة إصدار هذا الكتاب، أو جزء منه، أو نقله بأي شكل من الأشكال، أو وسيلة من وسائل نقل المعلومات، ولا يجوز تداوله إلكترونيًا نسخًا أو تسجيلًا أو تخزينًا، دون إذنٍ خطيٍ من الدار.

جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبّر عن رأي كاتبها، و لا تعبّر بالضرورة عن رأي دار النشر.

(رواية)

رامي أحمد

تمهيد

بعبق الخدر المتسلِّل عبر عروقي استرخيت مغمضًا عينيَّ، ينفلت من بين أصابعي مبضع خلا إلا من بقايا المحلول الأبيض فيه؛ ليستقرَّ في النهاية بين قدميَّ على أرضية السيارة المنطلقة بأقصى سرعةٍ تلتهم الطريق المفتوحَ أمامها... كلُّ الأصوات والموجودات في لحظة من حولي تلاشتْ؛ وكأنها برهة سكون، انفرجت بعدها –على صورة من وحي عقلي– كلُّ أبواب الخيال.

الهواءُ البارد المتدافع من النافذة المفتوحةِ إلى جواري يستقبلُ وجهي مستمتعًا للطماته، الكونُ! يبدو أكثر رحابةً من المعتاد، وكذلك تبدو أنفاسي؛ مؤهلةً لاحتوائه.

هذا الطيرُ الصغير الأزرق في الأفق من خلف سحبٍ رماديةٍ بدد بجناحيه تكاثفها؛ رأيتُه، يحلق مقتربًا مني، ولا يفصل بيننا غيرُ فراغ، ألوِّحُ له بذراعين؛ فردتهما للحد الأقصى متغاضيًا عن يدٍ من العدم امتدت لتجذبني، وصرخات محذرة لم أعرها أدنى اهتمامٍ قبل لحظات من دوي ارتطام مرتفع؛ رَجَّ كل كياني معه.

شظايا الزجاج المهشَّم كذرات لؤلؤ تناثرت حول جسدي السابحِ في الهواء كعصفورٍ تحطم قفصُه، مصابيح السيارات تعكس في عينيَّ وميضًا أشبهَ بعدسة مصور محترفٍ؛ يلتقط أروع ما في اللحظة، بينما

الإطاراتُ المكبوحة؛ صرير تشبثها بالأرض يصدح مبحوحًا كهتاف ألف مشجع، خطوط الأسفلت المتوازية تقترب في سرعة مني، وتستقبلني بارتطام أول.

لم أجد يومًا لمذاق الدم فوق شفتي مع ارتدادة الصدمة الأولى نكهة ارتياح كتلك، طنينٌ يغلف الزمنَ الواقف من حولي، ويمنحني الوقت لرؤية التفاصيل، صبغة اللون الأحمر التي طلَت كل شيء مع صدمتي التالية بالأرض تبدو كجحيم في قلبه؛ أزحفُ متجاوزًا سيارة على جنبها انزلقت، يتبعها خيطٌ من اللهب انعكس شررُه كشعلات احتفال بنهايةٍ تقترب.

الظلمة تسود، والألم يساورني مع ذلك الخيط الضبابي المتشكل من جزءٍ تبقى في وعيي يرسم بدقة ملامحَها؛ ذاتَ الشعر الحريري الفاحم، والابتسامة الشبهة ببحر أدمنت الغرق في أعماقه! كالموت كانت، أو كأن الموت هي... ساكنٌ مهيمنٌ على خط النهاية الزاحف أنا نحوه، يقف متأملًا في شغف اقترابي الذي تسيَّدَ كلَّ شيء دونه سوادٌ حالك، وينتظر...

– شريف؟

– شريف، إنت معايا؟

بهدوء تسلل صوتُه الرخيم الهادئ عبر ذكرياتي فانتزعني منها إليه...

على مقعدٍ جلدي في مواجهتي داخلَ مكتبه الدافئ جلسَ؛ ستينيٌّ نحيل حاد القسمات، تراجعت خصلاتُ شعره الرمادية عن مقدمة

رأسه، وباتت عيناه المختبئتان خلفَ عوينات سميكة ترصدان شرودًا سيطر على قسماتي، وجعلني أشبهَ بتمثال جامد من الشمع.

أطرقت الرأس صامتًا أمامه لا ألوي إجابةً بعينها، ثم درت بعينيَّ في أنحاء المكان لتستقرَّ في النهاية على الشريحة المعدنية المستقرةِ فوق المكتب الخشبيّ الأنيق حاملةً اسمه: الدكتور إبراهيم أبو المجد، استشاريُّ الطب النفسي وعلاج الإدمان.

باب الحجرة الموارِبِ على كلينا تسللت عبر فرجته نسماتٌ حُمِّلت برائحة العشب الندي مع صوتِ مرشات المياه التي انطلقت تنثرُ رذاذَها الصباحيَّ المعتاد في حديقة المكان الخارجية... ها أنذا اليومَ في مركز العلاج التأهيلي، وبعد ثلاثة أشهر انقضت؛ أصحو على صبحٍ أخير، مضطربًا كنت، يخامرني ارتباك النهايات، وتحتشدُ في رأسي كافةُ المواقفِ وكل الصور.

مرةً أخرى قاطع هو شرودي متمتمًا بسؤاله:

– سرحت ف إيه؟

بلسانٍ مضطرب كخواطري أجبته:

– مش عارف!

لا يبدو سهلًا تحديد المسار فوق خريطةٍ تغيرت تفاصيلها، وبات كل ما فيها يختلف، هذا أنا الذي غيره التعافي، ولم يعد بعد تسعينَ يوما كما كان... عجيبٌ هو الوقت! بمروره يغدو المألوف صعبا تمييزُه.

بابتسامة بسيطة لاحت على وجهه أمام ردي المقتضب تنهدَ،

وسحب من هواء الحجرة نفسًا عميقًا ملأ به صدرَه، ثم أفصح:

– الماضي اللي بتحاول تنساه سايب فيك لسه أثر.

لم يدرك لحظتَها لأي مدىً كانت دقيقةً عبارتُه، لم يدرك كيف أصاب بقوله حقيقةَ ما يجول في عقلي الذي استعاد طيفَ حدثٍ قبل ثلاثة أشهرٍ وقع، مغيَّبًا فاقد الوعي إثر حادثة مميتة نُقِلت إلى هذا المكان، محمولًا في عربة إسعاف علا فوق صوت أبواقها نحيبُ أمي التي اصطحبتني كما قالوا، كانت تائهةَ الوجدِ تجاوب استفساراتهم جميعًا بالبكاء، وعم حسن؛ ذلك المترهل صاحب الجسد المشعَّر كان جنبَها يستجدي بالتربيت فوق كفيها كليهما بعض الهدوء.

– لمدة خمس أيام فضلت محجوز عندنا في المكان، واحنا منعرفش عنك أي حاجة.

نطق بها الدكتور إبراهيم مستسلمًا بدوره لومضات من البارحة انبثقت في عقله، كان يتخذ من التنهيدات بين كلِّ عبارة وأخرى مجالًا لاستعادة الصورة في خياله بشكلٍ أوضحَ.

– والدِتك مكانتش عارفة تتكلم، وكل اللي عرفناه من كمية الجروح اللي على جسمك، وكلام الراجل اللي جه معاها يومها إنك اتعرضت لحادثة على الطريق السريع، وإنهم في المستشفى لقوا نسبة كبيرة من المادة المخدرة في دمك.

صمت قليلًا ليتنهد مرةً أخرى وهو ينظر باتجاهي ثم تابع:

– نسبة المخدرات اللي كنت واخدها مع علاجات التسكين

والمهدئات اللي ادوهالك في المستشفى كانت مؤشر كافي لأنك مش هتستعيد وعيك في فترة قصيرة، ودا خلاك محتاج متابعة خاصة ورعاية غير مضمونة النتايج، بس مع ذلك إحنا في المكان هنا مرفضناش نستقبل حالتك غير المستقرة، مع اتفاق ضمني بإن الأسرة هتتواصل معانا خلال أيام عشان نعرف منهم تفاصيل أكتر عنك قبل ما نبدأ مراحل العلاج الفعلي.

نهض من فوق كرسيه أمامي متجهًا بجسده النحيل وخطواته الرزينة إلى ما خلف المكتب ليلتقطَ من درج فيه ملفًّا؛ أخرجه قبل أن يفتح أول صفحاته متطلعًا على التاريخ المكتوب على رأسه قائلًا:

– يوم التلات، 19 يناير 2017، بعد خمس أيام بالظبط من حجزك هنا في المكان، كان تاريخ أول جلسة أسرية جمعت بيني وبين أسرتك يا شريف، وأول يوم أعرف حقيقي الشخص اللي محجوز عندي في المصحة يبقى مين.

قالها، فاعتدلت في جلستي أمامه مستجديًا سرد المزيد، سيتحدثُ عن البداية الآن، ولديَّ ما يكفي من الفضول لأسمعه.

***

«من حيث انتهينا دائمًا؛ تبدأ الحكايات».

***

البداية: الثلاثاء، التاسع عشر من يناير 2017...

صباحٌ ملبَّدٌ بالحنق استقبل به الدكتور إبراهيم كل شيء حوله في طريقه المزدحِم من المنزل وحتى مركز التأهيل الذي التقتْه على أعتاب بوابته الحديدية تلك السيارةُ ذات الأرقام الدبلوماسية المميَّزة، وبنفاد صبر علقَ يده فوق آلة التنبيه على المقود أمامه ليظهر إثر صخبها المزعجِ حارس البوابة العجوزُ بجلبابه الأبيضِ وهو يتجه نحوه رافعًا يده بالتحية متمتمًا:

– صباح الخير يا دكتور.

بعصبية صاح به إبراهيم:

– إيه ده يا عم راضي؟ مين اللي سايب عربيته في وش المدخل بتاع المكان كدا؟

لم يبدُ على الرجل أنه سمعَه وهو يمدُّ سبابته نحو أذنه لتثبيت السماعات الطبيةِ الرديئة فيها، فرفع الأخيرُ صوته مرةً أخرى مكررًا:

– بقولك مين اللي رَكن العربية دي هنا؟

– آه يا دكتور، دي عربية بتاعت أهل نزيل عندنا هنا، بيقولوا إن عندهم جلسة مع حضرتك النهار ده، السواق اللي معاهم

ركنها قريب بس عشان معاهم ست كبيرة حركتها تقيلة شوية، ثواني هاروح أنده عليه يجي يحركها.

متململًا مط إبراهيم شفتيه وهو يتابع ببصره الحارس الذي رحل مختفيًا في مدخل المكان قبل لحظات من ظهور ذلك الخمسيني الأسمر، والذي بدا بزيّه الأزرق كخادم من خدم العائلات الأرستقراطية في حقبة السبعينات، لا ينقصُ من الصورة لاكتمالها غير قبعةٍ لم يكن يعتمرها، بات بديلًا عنها شعرُه الخشن المصفَّف رغم ذلك بعناية...

رفع كفه بإشارة اعتذار لمنتظره قبل أن يدلف إلى سيارته، ويتحرك بها مبتعدًا من أمام البوابة التي دفع الحارسُ العجوز بصعوبة درفتيها مفسحًا الطريق أمام إبراهيمَ وسيارتِه للدخول... كانت فيلا بحديقة واسعة، يحفُّ أركانَها الأربعة سورٌ طوبي مرتفع، بُنِيَ بعرض أحد أضلعه مبنى ثانوي عريضٌ من طابق واحد.

لأمتار قليلة إلى الداخل تحرك إبراهيم بسيارته حتى سلمِ المدخل، قبل أن يترجلَ منها ليصعدَ درجاته المعدودة، متجهًا نحو مكتبِه عبر شرفة المكان؛ التي انتظره على مقاعدِ الانتظار المعدنية فيها أربعةٌ، لم يميز منهم سوى ذات العباءة التي رآها من قبل... وجومٌ عجيب خيم على ملامحها أمامه، وهو يقطع المسافة المتبقية بينه وبينهم، والتي دارت عيناه خلالها في وجوه الجميع.

– دكتور إبراهيم كويس إنك وصلت، أهل النزيل هنا مستنيينك بقالهم نص ساعة.

نطق بها أحدُ مسؤولي الاستقبال المعيَّنين لديهِ في المكان وهو

يقترب منه بخطواتٍ واسعة قبل أن ينحني على أذنه هامسًا بصوت خفيض.

– واضح يا دكتور إنو في بينهم مشاكل كبيرة، مبطلوش خناق مع بعض من ساعة ما وصلوا.

عقد إبراهيم حاجبيه مواصلًا طريقَه وهو يومئ برأسه علامةَ التفهم، ثم تمتم مرحِّبًا بتلك الأخيرة التي نهضت لاستقباله قائلًا:

– باعتذر عن التأخير يا مدام وداد، متهيألي الذاكرة مخانتنيش في الاسم؟ صح كدا؟

هزت صاحبة العباءة رأسَها في حين تدخلت تلك العجوز الجالسة على كرسي يجاورها بمسافة تسأل:

– حضرتك لو الدكتور المسؤول هنا في المكان يا ريت تطمنًّا على حالة ابننا اللي عندك.

كانت سبعينيةً، لم تغز التجاعيد ملامحَها كما فعلت بشعرها الذي اقتربَ في بياضه من لون الثلج، تدلُّ حمرة وجهها على نظامٍ غذائي محكَمٍ، وتوحي ملابسُها المنمقة وعصاها الخشبيةُ السوداء بالعرق الذهبي المزخرفِ لحناياها بوضعٍ اجتماعي وماديٍّ مرموق.

– ابننا؟

بلكنة مستنكرة نطقتها وداد قبل أن تتابع بفرط عصبيتها الواضحة:

– ابنك مين يا ست انتي؟ ابنك الحيلة قاعد جنبك هنا أهو، ويا ريت تاخدوا بعض وتمشوا انتي وهو وتسيبونا في حالنا، عايزين مني إيه تاني؟ كفاية لحد كده! كفاية!

كانت تتحدث بانفعال مقاومةً رغبتها القوية في ذرف الدموع، بينما استقبلت الأخيرةُ كلماتها أمام الجميع بنظرةٍ باردة رفعت معها حاجبيها قبل أن تلتفتَ إلى الأربعيني صاحب الحلة السوداء والذي اكتنفَ التوترُ والحزن قسماته برغم محاولتِه لتهدئتهم قائلًا:

– اهدي يا أمي من فضلك، اهدي يا وداد، الظرف اللي احنا فيه أعتقد إنه مش مستحمل أي نرفزة أو مشاحنات.

بصنعة البرود أجابته السيدة السبعينية وهي تحاول إخفاء غضبها بحكمة:

– إنت شايف مين اللي بيتعامل بنرفزة دلوقتي؟

كان الدكتور إبراهيم واقفًا يتابعهم في صمت، منتبهًا في تلك اللحظة فقط إلى ضخمِ الجثة الواقف على بعد منهُم بقميصه الرث، والذي احتلت هالات العرق معظمَ أجزائه، لقد رآه قبلًا مع صاحبة العباءة يوم وصولِ الحالة في سيارة الإسعاف، يبدو الآن وكأنه يتحاشى نظراتِ الجميع نحوَه، وبالأخص هي، كانت في لحظتها تنظرُ إليه متمتمةً بكل حنق الدنيا:

– ليه كدا يا حسن؟ ليه؟

لم تلقَ جوابًا منه لسؤالها سوى رأس مطرق، وعينٍ أشاح بها

عنهم في صمت استثمره إبراهيم للعودة بهم إلى سؤال السيدة العجوز وإجابته:

– أيوه يا فندم، مبدئيًّا أنا بالفعل الدكتور المسؤول هنا وصاحب المصحة في نفس الوقت، وتاني حاجة عايزكو تطمنوا على ابنكم وتتعاونوا معانا بشكل جيد وكل شيء هيكون بخير.

اندفع صاحبُ الحلة السوداء يسأله:

– هينفع نشوفه النهار ده يا دكتور؟

لم تخفَ عن إبراهيم تلك النظرةُ المتنمرة التي رمقت وداد بها سؤالَه بينما هو يبتسمُ في وقارٍ للسائل قبل أن يرد:

– النهار ده لأ، مش هينفع تشوفوه، إلا لو حضراتكو طبعًا مش مقررين تكملوا علاجه التأهيلي عندنا، لأننا طبقًا للنظام العلاجي اللي ماشيين عليه في المكان؛ مبنسمحش للأهالي برؤية النزيل غير في جلسة المواجهة اللي بتتم بعد اليوم الواحد والعشرين، ده أولًا، تاني حاجة، معتقدش إن ده هيفيد؛ خاصةً وإنه لسه مفاقش من حالة اللاوعي اللي دخل هنا بيها.

طيفٌ من الراحة احتل موقعَه على وجه وداد بعد إجابة الدكتور إبراهيم، قبل أن يستطرد حديثَه معهم مستبقًا أي سؤالٍ قد ينبع من عقل أحدِهم بنبرة عملية اعتادها:

– بالنسبة للنهار ده إحنا جايين عشان نعمل جلسة أسرية ندردش فيها عن شوية معلومات بخصوص الحالة، ودا في

اعتقادي محتاج نوع من تمالك الأعصاب أنا مش شايفه للأسف بينكم، فلو حابين نلغي الجلسة النهار ده أنا معنديش مانع؟!

أحرجت كلماتُه الحازمة بعض الموجودين في حين تمتم من بينهم صاحب الحلة السوداء بصوت خفيض:

– لا مفيش داعي يا دكتور، لو الجلسة في مصلحته يبقى الأفضل نعملها النهار ده.

هز إبراهيم رأسَه أن جيد، ثم أكمل الطريقَ نحو باب المكتب مشيرًا إلى مساعده الذي تبعه وعلاماتُ الإعجاب من أسلوب رئيسه جليةٌ فوق ملامحه.

– بلغهم يا عاطف يحضرولي فنجان القهوة بتاعي، وابعت حد يشوف الناس هنا تشرب إيه قبل ما تدخلي الأستاذة وداد ووالد الحالة بس للمكتب عشان نبتدي الجلسة.

قالها وهو يدير المقبضَ بيديه ليفتحَه قبل أن يرتفع في استنكار استوقفَه صوت السيدة العجوز وهي تهتف:

– إزاي والده ووالدته بس يا دكتور؟ يعني أنا جدته هفضل قاعدة برة هنا بعمل إيه؟

خطى بقدميه إلى داخل المكتب قبل أن يلتفتَ نحوَها ليمنحها اعتذارًا عابرًا بعينيه وهو يكرر في ذات اللحظة لمساعده:

– الأب والأم بس يا عاطف، مش محتاج في الجلسة زيادة عن

الاتنين دول.

قالها بنفس اللهجة العملية الحازمة، ثم أغلق الباب عليه أمامهم بمنتهى الثقة، والهدوء.

***

الفصل الأول

«في رحلة سعيِك خلفَ الحقيقة؛ تأهَّب دومًا للقاء الوجع»

***

لم يكن بحاجةٍ أمامي لتفسير الأسلوب الجافِّ المقتضب الذي بدأ به معهم حوارَه، كطبيب نفسي كان يدرك كم ستعرقلُه مشاعرُ متضاربةٌ كتلك التي التمس ما يكفيه منها بينَهم في لحظات اللقاء الأول، أفهم بدوري ذلك، لذا؛ لم يستوقفه شبحُ استنكارٍ تنامى برغم الفهمِ فوق ملامحي من مواصلةِ الحديث.

وصف لي ذلك السكوتَ الخانق الذي جمع بين كليهما داخلَ المكان لدقائقَ أمامه في المكتب وكلٌّ منهما يجلس في ركنين متباعدين كأقطاب متنافرة.

وداد أمي، تلك المتشحةُ بحزن فاق سواد عباءتِها، فوق المقعد أمامه جلست، وعلى بُعدٍ منها أبي، صاحب الحلة الخاوية إلا من جسدٍ بلا روح تحتويه؛ يتابع ببصره الأبخرةَ المتصاعدة من فنجان القهوة المستقرِّ فوق المكتب الخشبي أمامه، ومن خلفها وجهُ إبراهيمَ الذي تناول قلمه وملفًّا فارغًا؛ فتح صفحته الأولى وشرع في وضع خطوطِه فوقها.

– من أين سنبدأ؟

خامرهُ السؤال وهو يبحث بين أعينِهم له عن إجابة.

– مكنتش عارف هبدأ جلستي معاهم بأنهي سؤال.

صارحني بالجملة مغمضًا عينيه وهو يتراجعُ فوق مقعدِه أمامي ملتقطًا من الهواء حولَنا نفسًا عميقًا ملأ به صدرَه قبل أن يزفره ببطء شديد ليواصل:

– أبوك كان قاعد على نفس الكرسي اللي إنت قاعد عليه قدامي هنا، وملامحه كانت شايلة نفس النظرة اللي شايفها في عينك دلوقتي: نظرة الفضول، والرغبة في المعرفة.

قشعريرةٌ باردة سرت في جسدي وأنا أتحسس مسندي الكرسي مستشعرًا كم المشاعر التي تركها أبي فوقه، كأنما اختزنها فيه قبل أن يرحل، أو كأن مشاعري باتت مرهفةً إلى حد سمح لي بتخيل الأمر، (رباه!) لعمري لم أحظ يومًا بفرصة اقترابٍ من إحساسه بقدر تلك التي منحني إياها المقعد في تلك اللحظة.

– اسم المريض؟

تمتم الدكتور إبراهيم كعبارة استفهاميةٍ مقتضبة، بعد برهة الصمت بدأ بها معهم حواره واضعًا سن قلمِه فوق الورق وهو يطالع وجه الأب الذي بدا عليه الاضطراب، شعور كان يمزج بين التردد والخوف؛ لم يستوعب إبراهيم حينها أسبابه، فكرر السؤال:

– أستاذ جلال أنا بسألك، اسم ابنك إيه؟

بدا الاحتقان جليًّا على قسمات الرجل وهو يهز كتفيه في حيرة موجهًا بصره نحو وداد التي جلست مستترةً بعباءة حزنها متواريةً خلف الألم قبل أن يتمتم بحروف مبحوحة:

– اسألها.

عقد إبراهيم حاجبيه وهو يتراجع في مقعدِه خلفَ المكتب بغير قدرة على الاستيعاب، بينما بذات النبرة المتهدجة تابع جلال:

– أنا معرفش أي حاجة عن اللي حصل يا دكتور، ولا عارف مين ف ولادي اللي عندك جوه، أنا حتى معرفتش حاجة عن المكان ده أو الجلسة دي غير يدوب من كام ساعة فاتوا.

ازداد انعقادُ حاجبي الدكتور إبراهيم مع مواصلة الأخير الحديثَ من بين أنفاسه المتقطعة وهو يقول:

– كل اللي أعرفه إنو ليا ابن موصلش المطار في معاده، وكلمتين قالتهملي وداد في التليفون يوم ما اتصلت أسأل عن سبب التأخير.

انقطعت عند هذا الحد عبارته، لم يتحمل من فرط ما يشعر به أمامها، بيد أنها لم تفارق أبدًا عقلَه مذ قيلت:

«ابنك مات».

***

وقف مستندًا على حافة الشرفة الخارجية للمصحة خلفَ باب

المكتب بشعرِه الأشعث وجسده الضخمِ التي حملت هيئتُه كل مشاعر الخزي، يرتدي قميصًا رثًّا انتشرت هالات عرق أضفاها التوترُ فوقه رغم برودة المكان وظلال الأشجار المحيطةِ التي لم تلق على وجهه البائس قبسًا منها، مضطربًا انشغل في فرك سواد الشحم المتجمع تحت أظافرِه وهو يتأمل من حين لآخرَ كفيهِ التي أضفت عليهما سنوات العمر غلظةً لم يتقاسمها وقلبه، رقيقًا كان برغم قساوة هيئته.

في بوتقة العشق يحيا حبيسَ ذكرياتٍ قديمة لا تفتأ تعاودُه كلما حاول الهروبَ منها، وفي الجزء المقدَّس للماضي من ثنايا عقلِه ما زالت صورة عُقدِ حباتِ الفول الملتف حول معصمه، ما زال صوتُ دقات الهون التي صدحت بها أرجاء البيت القديم، وما زالت هي نائمةً أمامه، بأصابعَ لم تتجاوز أعوامها الخمسة؛ لامس بحذر وجنتها، تلك الرضيعة مغمضة العينين في مهدها بعمر سبعة أيام يغطيها لحاف وردي، كانت رائعةً، وكأنها المركز لكون رحب يحتويه، ألهمته من مجردِ نظرة، وهو الذي لم يدركْ أبدًا كنه الإلهام.

عُلِّقت الزينة في كل الأركان احتفالًا بحضورها، من حوله كان صغار العائلة جميعًا يمرحون، وفي أذنيه تناثرت الزغاريد والضحكات، أما هو فكان معها، هي فقط.

– أستاذ حسن، تشرب حاجة؟

انتشلته العبارة المنبعثة بصوت أحدِهم من أروقة المشهد القديم عائدةً به لأرض الواقع فالتفتَ إلى مصدرها ليجده أمامَه: عامل البوابة العجوز بجلبابه الأبيض الذي استقبلَهم صباح اليوم، أشار له بتثاقل أن لا، قبلَ أن تستعيده خواطرُه مرةً أخرى لمكان آخر.

بطول الطريق الذي قطعه وإياها إلى هنا لم يكن في رأسه غير صوت واحد: «**كيف خذلتها؟ أي قدر من الحسرة كافٍ وقد أفسدت بحمقك كل شيء؟ وأي كمٍ من الأسف قد يجدي تعزيةً لقلبك في خيطٍ من الأمل كان ممتدًّا وقطعته يداك؟ وداد! حبك الأبدي المكتوم! حلمك الذي خُلِقت لأجله، وطال بقاؤه فيك متحديًّا كل ما كساك وكساها من تجاعيد الزمن، تلك التي قطنت معك نفس الحي، ولعبت معك في نفس الأزقة، وتشاركتما معًا نفس الضحكات البريئة، معها مر العمر يتقاذفكما بين شطآن اللقاء وموانئ الفراق**».

يذكر لوعتَها في ليلة الحادث الأليم، راكضةً هي فوق الأسفلت يسبقها قلبها المنتفض، ويحاول اللحاقَ هو بها مهرولًا بجسده المترهل، ككابوس بشع أمسى من حولها كل شيء، تحتاج لصبرٍ يفوق تحملَها أمام المشهد، ويحتاج هو لأضعاف ما يملك من قدرة للتهوين عليها.

حشود ملتفة حول سيارة محترقة يجمعون منها أشلاء جسد تفحمَ، بينما انهمك آخرون على مقربةٍ منها في حمل ذلك المخضَّب بدمائه، هامسةً أنفاسُه بنبض بدا في مرحلة التلاشي، كل خلية من خلايا جسدها كانت تصرخ رافضةً التصديق، ليس حقيقيًّا ما تراه، ليسا هُما، ليسا طفلاها.

أضواء سيارات الإسعاف من حولها مع الدموع المنهمرةِ تورثها المزيد من اللوثة، ومزيج التربيتات فوقَ كتفها مع كلمات المواساةِ التي حاول بها تهدئتَها تقتلع من عينيها دموعًا لا تنتهي، إنه الوجع

المودي لهاوية الجنون.

كم من الصرخات اقتلعت حنجرتَها؟ وكم من العبرات الملتهبةِ ذرفت؟ هل قاسمَ هو بعضًا من شعور قلبها المنشطر فوقَ الأسفلت الدامي بين نصفٍ محترق وآخرَ يلفظ أنفاسًا أخيرة؟ هل استشعرَ الموتَ فيهما كما استشعرته؟ كان عاجزًا عن فعل شيء، أي شيء.

نظراتها تحكي بصدق ما يعتمل في نفسها من أحاسيس، كل لحظات الحياة ليتها اجتُثَّت من روحها لمنحهما نبضا جديدا، أنى لهذا القدر أن يمنحها وداعًا لم يكن في الحسبان؟ أنى له أن يحرمها الحياة وهي حية؟ هذا الجحيم الأسود؛ يحيط بها لتسقطَ وحدها محترقةً فيه، يأخذها بعيدًا لليلة حالكة؛ شموس الكون كافةً لا تبدد ظلمتها.

ساعات من التيه سقطت غائبةً عن الوعي في نهايتها، ولم تنتزعْ منها إلا بهزاتِ كفِّه القلقة فوق كتفها بعد انتهاء أخصائيةِ التمريض داخلَ أحد المشافي الحكومية من دسِّ السائل المهدئ عبر وريدها وهي تتمتم:

– الحقنة دي هتفوقها، اطمن يا أستاذ، الإغماءة دي طبيعي من أثر الصدمة اللي اتعرضت ليها، خليك بس إنت جنبها وربنا يحفظكوا لبعض.

لم تنتبه وداد في استفاقتها لعبارةِ الممرضة التي وصفتهُما فيها كزوجين، ولم ينقلْ لها جفناها المفتوحان تدريجيًّا غيرَ صورةٍ للمكان الذي ميزتْ منه بعد برهةٍ ملامحَ حسن المتأثر ولكنتَه الصعيدية التي تمتم بها:

– حمدلله عالسلامة يا بت عمي.

بعين تملؤها الدموع نظرتْ إليه، نخر الحزن طاقتَها وجعلها غير قادرةٍ حتى على الاعتدال أمامَه فتشبثتْ بكمِّ قميصه على وضعها باكيةً:

– قوللي إنو كابوس اللي شفته ده يا حسن، أرجوك! قوللي إنو كان كابوس.

تمالك بصعوبة نفسَه أمامها وهو يشيح بوجهه بعيدًا، لم يدرِ بأي قولٍ يهدِّئها، وبأي لسانٍ يعزيها في ابن رأته أشلاءَ محترقةً، وآخرَ ما زالت أنفاسُه قابعةً رهن مقايضة بين حياة أو موت، كان يريدها بخير، ولكن الموقفَ كان أقسى من أن يعينه.

– الدكاترة بيقولوا إن فرص نجاته من الحادثة معقولة، رسم المخ اللي اتعمله بيقول أن مفيش ارتجاج، والإصابات كلها عبارة عن جروح سطحية وكدمات، بس التحاليل بتأكد وجود نسبة عالية من المخدر في دمه، ممكن يكون ليها تأثير مع التفاعل العصبي اللي عملته الحادثة ساعة وقوعها.

أخبرها بالأمر ولم يضف، ناصفَها بصمتِه اليائس وجعًا يخالطه القهر، وأنين بكاء تقطع مع ارتفاع رنين هاتفها المحمول في جيبه، فمد يده يلتقطه ويناولها إياه مغمغمًا:

– خدته منك لما وقعتي، الأستاذ جلال اتصل أكتر من مرة، والصراحة معرفتش أرد أقوله إيه.

كان يكذب، لم يكن هذا هو سببَه الحقيقي الوحيد وراء عدمِ الرد، جزءٌ دفين من نفسه فضَّل أن يحتلَّ وحده موقع المسؤولية، جزءٌ دفين منه امتن للحادث رغم فظاعته، وإن لم يدرك نفسُه ذلك، لطالما تمنى مشاركتَها أي شعور، حتى وإن كان الحزن.

بيدٍ من وهن التقطت منه الهاتفَ متأملةً الاسم الظاهر على شاشته، خالجها التردُدُ في الإجابة، وانبثقت من رحم الألم داخلَها رغبة في الانتقام، كثرة الوجع لا تضعفُنا بقدر ما تقضي فينا على مساحات الرحمة والتقبل، صاحبُ الاسم البادي أمامَها هو المحمَّل بذنب الماضي، والسببُ في كل الشرور، صاحبُ الاسم البادي أمامَها تراه شيطانًا مثواه جهنم، وهي العدالة ستمنحها إياه، لن تسكن وحدها هذا الجحيم.

ضغطت زرَّ الإجابة فأتاها الصوت المفعَم بالقلق من الجهة الأخرى يتساءل أين فتاه، ولماذا تأخر ميعاد وصوله؟ كانت جاهزةً بالإجابة، لكن شيئًا من الشفقة ربما علقَ على طرف لسانِها ومنعَها من البوح، أو أنه كان احتياجًا؛ توسلتها له الدموع التي لم تجف بعدُ فوق وجنتيها، هو شيء لم تدركْ لحظتَها كنهه، لكنَّها نفضته عنها في لحظة لمح خلالَها حسن في عينيها نظرةَ انتقام عبَّرت بعد السكوت عن نفسِها بحروف الرد المقتضَب البارد:

– ابنك مات.

قالتها وحسب، ثم قطعت الاتصال، وبعقل لا تحوي تلافيفُه غير شعورٍ بالألم وكراهيةٍ عاتية التفتتْ نحوَه تبكي:

– جلال مش لازم يعرف أي حاجة يا حسن، كل الحقائق مهما بلغت صعوبتُها تريَّح، ولا راحة لمن لا يستحق.

نطقتها بكل الحزن، ووافقها هو، وافقها استسلامًا لرغبتها، أو حقنًا لمشاعرِ حنقه الدفينة ضد رجل اقتنصها ذات يوم منه، عاهدها بإيماءة رأسٍ لم ينتوِ أبدًا نقضها، بيد أنه في النهاية فعلَ، وها هو ذا الآن يقفُ تائها بلا أهلٍ للوم نفسِه ولا سواها.

عائدًا للواقع في شرفة المكان يمنحُ الباب المغلَقَ على بعد أمتار منه نظرة تحسر، ويتخيلها متشحةً بعباءة حزنها الأسود من ورائه تجلس يشاركُها المكان طليقها وطبيب معالج، تعاتب نفسَها على لحظة ثقةٍ زائفة فيه، وتسأله بصوت ترددَ في ضميره صداه: «**ليه كدا يا حسن؟ ليه؟**».

***

هنا كان عليَّ أن أسأله بعد أن حاصرتها أعينهم داخل تلك الحجرة محدودةِ الاتساع في بادئ اجتماعهم الثلاثي المغلَق.

– هل ترددتْ لبرهة قبل الإجابة؟ هل راود التلعثمُ حروفَها حين نطقت بالاسم؟ وهل بدت الكلماتُ كشظايا من نار اخترقت قلبَ أبي؟ ذلك الواقعُ بين براثن فضوله والمجهول، أَبَكَى؟

ربما! لكن شيئًا من ذلك لم يثنِ القلم عن رسم حروف الاسم المذكور في رأس التقرير الفارغ.

– اسم الحالة شريف يا دكتور، شريف جلال عبد العزيز.

الفصل الثاني

«مجهولٌ أفضل من حقيقةٍ مؤجلة»

***

خيم الصمت الطويل على ثلاثتهم في المكان، صمتٌ حزين مترقب منحه الدكتور إبراهيم احترامًا كل الوقت، هي؛ كانت دموعها المنهمرة وجعًا تحكي بصدق ما يعتمل داخلها من مشاعر، وهو؛ كان انتحابه مقرونًا بشفاه مرتعشة، ظل يردد بها اسم وليده المفقود.

مات ياسين! إن كان الموجود هنا ابنه شريف، فقد مات ياسين، ومن روايتها في مخيلته ارتسمت صورة لجسده المتفحم، كان ملثَّمًا بصدمة اكتشاف الحقيقة واحتراق ما سبقها من أمل وتوقعات، يعاني تلك اللحظة التي يتخضب بعدها كل شيء بالسواد، كل شيء، من بعد مهاتفتها المقتضبة أمضى ساعاته في ضياع وحيرة.

حاول مرارًا أن يتواصل معها، أن يفهم تفاصيل ما حدث، لكنها لم تهده إجابة، لم ترحه، تركته لأكثر من أسبوع يحترق بين لهب علامات الاستفهام كيائس متلهف لنصل سكين أغمدته اليوم أخيرًا في صدره، لكم تمنى متعلقًا بالوهم البائس في ثنايا عقله أن لا يعدو الأمر كونه مجرد كذبة اختلقتها بعقل مريض؛ تلك التي يدرك ما تحمل تجاهه في

قلبها من كراهية وحنق.

لعبة انتقام أعمى من عقل امرأة اعتبرته السبب الوحيد في جرح قلبها الغائر، لكنها وبكل الأسف لم تكن كذلك، لقد مات ياسين حقًّا، وقد بات الآن يعرف، تنحى الفضول أخيرًا ليترك مساحة كان يشغلها للوجع.

تنحنح إبراهيم بعد برهة لجذب انتباه ضيفيه المدفونين وسط همومهما وكم من الأسرار لم يفصحا منها عن شيء بعد، فثمة عقدة هنا عليه فك طلاسمها.

مستقرة عيناه على الوجه الأنثوي الذي حمل من الحزن قدرًا يخالطه اللوم، مزيج مربك حيره، وعجز عن فهم دواعيه، أكان حزنًا خالصًا من قلب أم فقدت ابنها؟ أم أنه الحزن المكبوت منذ عقود في انتظار سبب لإفراغه؟

افتتح حديثه بعد الصمت بعبارة تعزية وجهها لكليهما مغمغمًا بصوت سمعوه:

– البقاء لله.

ولم تجئه إجابة غير هنات النحيب، سأل بصوت هامس متحرجًا نبش قبر ألمهما المقدس:

– ياسين كان أخوه؟

أجابته بهزة رأس تحاشت خلالها النظر إليه، بينما تمتم الآخر:

– توأمه يا دكتور! ياسين الله يرحمه كان توأم شريف، الاتنين اتولدوا في نفس الساعة.

هز إبراهيم رأسه أمام الرد مستشعرًا إحساسه قبل أن يضغط من فوق مكتبه الزر الذي أصدر أزيزا خارج المكان، انفتح على أثره الباب مرةً أخرى مفصحًا عن وجه أحد العاملين.

– كبايتين مية للأساتذة يا محمد معلش، وهاتلي علبة مناديل خليها عندي هنا في المكتب لو سمحت.

قالها، فسارع الرجل بتنفيذ الأمر قبل أن يعاود هو محادثتهم بصوت خفيض:

– تحبوا نأجل الجلسة شوية أو نخليها يوم تاني لحد ما تبقوا في وضع نفسي أحسن من كدا؟

بملامحها المهمومة صمتت هي في حين حاول الآخر أن يبدو متماسكًا وهو يمسح بكفه وجنتيه المبللتين مجيبًا:

– لأ يا دكتور، اتفضل كمل احنا معاك.

تنهد الطبيب مقدرًا ما يتكبده الرجل أمامه، وانتظر لحظات عاد خلالها العامل بعلبة المناديل وزجاجة مياه معدنية مع كوبين، أشار له بوضعهم على مقربة منهما قبل انصرافه مرة ثانية.

– جايز مقولتوهاش بس اللي فهمته من الكلام كدا انكوا منفصلين.

تمتم بها مراقبا ردة الفعل المتبادلة بينهما في انتظار التأكيد، هو أطرق برأسه، وهي سرحت بعينيها بعيدًا ناحية الفراغ، ردًّا كان أبلغ عنده من مئة إجابة أعاده إلى حالة التركيز، فاعتدل متخذًا وضع استعداد للمواصلة، وبحروف بطيئة سألهما:

– قبل ما أعرف انفصلتوا امتى وليه، ممكن تحكولي البداية؟ عايز أعرف اتقابلتوا من الأول ازاي؟

بديهيًّا يستدعي كل رسام أدواته قبل الشروع في رسم اللوحة، وأدواته كطبيب نفسي كانت الماضي المشكِّل لملامح حالاته، فإلى تلك الصفحة البيضاء التي استقبلت أول رتوش الحكاية عودوا، واسترجعوا اللحظات الأولى، توقفوا على أعتاب فجر استقبلتم ذات يوم سويًّا شروقه، ولتكونا رغم كل ما تلاه من غيمات الليل صريحين، كيف كان؟

***

من داخل سيارتها الواقفة أمام سور المصحة بشعرها الأبيض وتجاعيد الزمن التي غزت وجهها المائل للحمرة قبعت السيدة العجوز إشراق هانم متململةً بجوار سائقها الخمسيني الأسمر الذي أعاد رأسه للوراء مسترخيًا وهو يضع منشفةً صغيرة فوق عينيه ليحظى بقسط من الراحة وسط زخم اليوم المجهد الذي بدأه منذ شروق شمس اليوم.

زفرة حانقة أخرجتها وهي تمد كفها مستقبلة فوقه بعض الهواء البارد المنبعث من فتحات التهوية الأقرب إليها فتحرك معتدلًا على

إثرها ليتساءل وهو يقاوم التثاؤب بصعوبة:

– معلش يا ست هانم، بايني نعست شوية، التكييف معقول وللا أزودهولك حبة كمان؟

رمقته صامتة كمن انتُزِعت من خواطر كانت تشاركها لحظات السكوت، بعدها تمتمت:

– كمل نوم يا نعيم، معلش قلقتك.

هز كتفيه مجاوبًا في إرهاق وهو يرفع يده نحو ثغره المنفتح على تثاؤبٍ ثانٍ:

– مكنتش نايم، دي تغفيلة عالسريع كدا.

قالها ثم أطل بعينيه على الساعة فوق معصمه متنهدًا فسألته:

– هي الساعة كام دلوقتي؟

دون تردد أخبرها:

– داخلة على 11 ونص.

ارتفع حاجباها في استنكار وهي تمصمص شفتيها متجهةً برأسها نحو بوابة المصحة المجاورة لنافذتها لتغمغم في توتر:

– بيعملوا إيه كل ده؟ ساعة كاملة مع الدكتور الغبي ده جوا بيرغوا في إيه عايزة أفهم؟

أفصح بغرض تهدئتها:

– الصبر يا ست هانم، يظهر الجلسات اللي مالنوع ده بتاخد وقت.

أجابته بزفرة حارة انطلقت من أعماقها وهي تقول بعصبية:

– عارفة إن الجلسات الزفت دي بتاخد وقت، بس أنا برضو بني أدمة وعندي أعصاب ليها تحمل طاقة محدودة.

فرك هو جفنيه المتثاقلين متحسرًا على لحظات راحة كان يرجوها بينما هي تتابع بنفس حنقها:

– أنا مش فاهمة الراجل قليل الذوق ده ليه عارض وجودي معاهم في المكتب جوه؟ كان زماني فاهمة اللي بيحصل وعارفة بيقولوا إيه.

مهونًا عليها مرة أخرى، تمتم:

– بغض النظر، في كل الأحوال اطمني، شوية جلال بيه هيطلع ويفهمنا كل حاجة، متشغليش بالك.

لوحت بكفيها أمامه في استهجان وهي ترد:

– مش عارفة أطمن يا نعيم، القلق مسيطر عليا بشكل استفزازي، جلال ابني أهبل، والحرباية اللي معاه جوه دي أنا متأكدة إنها قادرة تاخد الحوار كله لصالحها دلوقتي، زي ما قدرت تاخده هو نفسه ليها زمان.

قالتها ثم سكتت مفسحة المجال لزفرة حنق أخرى استطردت

بعدها:

– هقول إيه بس؟ ما هي الغلطة من الأول عندي أنا، أنا اللي إديتها فرصة وفتحتلها الباب عشان توصل لقلب ابني بمنتهى الخسة والانحطاط.

رغبة عارضة في مجادلتها راودته فأثنته النبرة المتعصبة في حديثها عنها وهي تتابع:

– جتلي الشركة عيلة صغيرة لسه متخرجة من معهد المحاسبة الزفت بتاعها ده.

كان يوم إسود لما قبلت أشغلها عندي، مش فاهمة أنا إيه اللي شدني فيها؟ البراءة الكدابة اللي كانت راسماها على وشها؟ والَّا ذكاءها اللي مكنتش فاهمة كم الخبث المتداري وراه؟

لم يرغب في مقاطعتها لكن شيئًا من الاستنكار تسلل عبر شفتيه رغمًا عنه فلفظه:

– ملوش لازمة الكلام ده دلوقتي يا ست إشراق، دي حكاية فات عليها سنين.

بنفس الاحتداد وكأنها لم تسمعه واصلت الباقي من جملتها قائلة:

– خريجة معهد متوسط ملوش ذكر ولا قيمة، تبص ليه لمستوى أعلى منها؟ تقرب من ابني اللي تعبت في تربيته سنين ليه؟

كانت كلماتها تحمل قدرًا واضحًا من العنصرية أزعجه لكنه كتم رغبته في الرد وهو يتلفت فيما حوله محاولًا صرف انتباهه لشيء آخر بينما هي تستطرد محدثة نفسها:

– بس أرجع وأقول تاني برغم كل شيء إن الغلطة الأكبر كانت من عندي أنا، أنا اللي متصرفتش من الأول صح، أنا اللي وقفت أتفرج عليهم من بعيد ومخدتش قرار حاسم.

اضطره صمتها بعد العبارة وضميره المتيقظ إلى الرد بشيء من الاستنكار حاول قدر الاستطاعة إخفاءه:

– وهو إيه اللي حصل بس يعني؟ اتنين حبوا بعض واتجوزوا على سنة الله ورسوله، هما لا سرقوا حاجة من حد ولا أقدموا على فعل حرام، والفرق الاجتماعي اللي بينهم مهما كان مش دافع لتكفيرهم أو تحريم اللي عملوه، وبعدين ما هما منفصلين بقالهم سنين أهو، إيه المشكلة بقى دلوقتي أنا مش فاهم؟

لمح وسط عبارته الشرر المتطاير من عينيها تجاهه فحاول توجيه الحديث لدفة أخرى مغمغمًا:

– أنا غرضي بس تهدي، وخلينا مننساش إننا هنا عشان نطمن عالولد اللي جوه، واللي معرفناش لحد الساعادي هو مين حتى.

نجح في جذب انتباهها عن الأمر بعبارته تلك فأطرقت قليلًا قبل أن تعاود هز رأسها في سخط قائلة:

– كله بسببها، كل البهدلة اللي احنا فيها دلوقتي دي بسببها،

حسبي الله ونعم الوكيل.

هز رأسه بدوره متمتمًا بكلمات مبهمة لا معنىً لها في حين عاودها هي الصمت المفعم بالزفرات الحانقة، وبنفس السكون إلى جوارها سرح بفكره، لم تكن أبدًا لتتغير، لقد أمضى عمرًا طويلًا في خدمتها، سنوات كافية ليدرك قدر عنادها، هي تلك التي لا يرضيها الاعتراف بهزيمة، تجلس الآن إلى جواره محاولة التنصل من حرملة ذنب تكسوها، يعرف في قرارة نفسه أنها وبرغم كل النفوذ لا تفتأ كأنثى غير قابلة لفكرة أن أخرى استطاعت وبعنوة سلبها أهم شيء تملكه: جلال، ذاك الحلم الوحيد الذي عاشت لأجله، ورسمت لمستقبله صورة حاربت من أجل أن تتحقق، ثم خامره متسللًا من بين الخواطر سؤالٌ تردد لوهلة قبل أن يفصح لها عنه متمتمًا:

– عندي سؤال كدا يا ست هانم معرفش إذا كان مسموحلي أسألهولك بعد السنين دي كلها وللا بلاش؟

التفتت نحوه بعلامة استفهام مرتسمة فوق ملامحها فأدلى:

– هو انتي كنتي بتحسي بارتباط حقيقي ناحية ولاد ابنك شريف وياسين؟ وللا كونهم ولادها هي كمان لغى عنهم الميزة دي؟

ضاقت حدقتاها أمام سؤاله، مستنكرةً من صميم قلبها كأم مغزاه، لم تلم يومًا فطرته الصريحة التي ألفتها منذ زمن فيه ولم يتركها هو كجزء متأصل في طبعه، لكن سؤاله هذه المرة ضايقها، وساءها فيه إغفال مشاعرها المتوارية خلف قناع من الحزم اعتادت دائمًا ارتداءه، لطالما تناسى الجميع وراءه طبيعتها كجدة أمضت وقتًا ليس

بالضئيل مع حفيديها التوأم، أولئك اللذين لم تتقبل أبدًا والدتهما، لكنها لم تنكر يومًا حقها فيهما، تزعجها النظرة السطحية التي ينظر بها الجميع إليها، وأنهم جميعًا –برغم اقترابهم الطويل منها– ما زالوا وبكل الأسف لا يفهمون.

***

انهمك الجميع داخل غرفة الاجتماعات حول المائدة المستطيلة بجمع ملفاتهم الخاصة قبل أن يستعدوا للرحيل أمام رئيستهم التي أنهت جلستها بتوصيات أخيرة قبل أن تلتفت برأسها ناحية تلك الفتاة الشابة التي جاورتها والتي نهضت بدورها استعدادًا للانصراف مع الآخرين قائلةً بلهجتها القيادية المعتادة:

– وداد، مسمعتش رأيك النهار ده في أي حاجة خلال الاجتماع، يا ترى كنتي مركزة مع اللي بنقوله وللا في حاجة تانية برة سرحانة فيها؟

ارتبكت الفتاة بعض الشيء محاولةً الابتسام وهي تقول:

– أبدًا والله يا إشراق هانم، مركزة جدًّا، بس أنا زي ما حضرتك عارفة لسه جديدة هنا في الشركة، وبخاف أقول حاجة تطلع غلط أو تعطل سير الاجتماع، فبقول أقعد مستمعة وأتعلم من حضرتك والأساتذة.

رمقتها رئيستها بنظرة صامتة طويلة ثم أشارت إلى الحجاب فوق رأسها قائلة:

– لو مش ناوية تقلعي الطرحة دي لفيها اسبانيش، شكلها هيليق أكتر عليكي وعلى مود المكان.

قالتها ثم نهضت متجهة إلى الخارج وهي تشير لها آمرة:

– وتعالي ورايا.

خطت وداد خلفها في أروقة المكان نحو المكتب الذي دلفت إليه، ثم أغلقت الباب خلفها بإشارة أخرى منها وهي تلقي بجسدها فوق الأريكة الجلدية الوثيرة في ركنه مستجمعةً أفكارها لبرهة قبل أن تسأل:

– ملف حسابات مصنع اللبن أخباره إيه؟

في سرعة وبأسلوب تقريري أسرعت وداد تجيب:

– صاحب المصنع بعتلنا بالفاكس البيانات اللي طلبوها منه في مصلحة الضرايب، وأنا صورتها ودخلتها للأستاذ محسن عشان يشتغل عليها قبل معاد المطالبة بإذن الله.

أومأت إشراق برأسها وهي ترفع حاجبيها بشيء من عدم الرضا متمتمة:

– تمام، هايل جدًّا، متنسيش بقى تحجزيلي الأستاذ محسن جنبك عشان لو احتجت اسأل عن حاجة تاني.

لم تستسغ وداد النبرة التي نطقت بها الرئيسة عبارتها، فترددت بعض الشيء وهي تستفسر:

– في حاجة فكلامي ضايقتك يا مدام إشراق؟

وكأنما انتظرت سؤالها فأجابت بحدة ودون موارية:

– طبعًا يا وداد مضايقة منك.

همت ذات العشرين بإلقاء سؤال مضطرب آخر لولا أن قاطعته قبل خروجه الأخرى وهي تكمل:

– انتي امتى يا بنتي هتتجرأي عالشغل وتجربي بنفسك؟ بقالك معانا هنا شهر، وقايلالك إن ملف مصنع اللبن ده أنا سيباهولك تجربي فيه، الحكاية أصلها بسيط جدًّا، وانتي شاطرة يا وداد وعندك خبرة كافية، بس القلق اللي معيشة نفسك فيه ده هو اللي لاغيلك ثقتك تمامًا، ودا مينفعش ولا هينفع تستمري بيه.

قالتها ثم نهضت واقفة أمام الفتاة مشيرة إلى ما حولها مستطردة:

– بصي لكل اللي حواليكي هنا في الشركة يا وداد، تفتكري لو كان عندي ربع التردد اللي عندك ده كنت هعرف أحقق من ده كله حاجة؟

حاولت وداد استيعاب ما تحاول المرأة إيصاله لها وهي تتمتم:

– فاهمة قصد حضرتك، أنا والله بس مش عايزة أعطل الشغل وبقول مع الوقت يمكن الخبرة اللي عندي تتطور وابقى أحسن بإذن الله.

لم يبد في حديثها ما يقنع أمام الأخيرة التي رفعت كفها نحوها

مشيرة بقطع العبارة وهي تقول:

– الخبرة مبتجيش من غير تجربة، افهمي ده كويس، لازم تجربي، لازم يكون في غلط عشان يبقى في تصليح، ولازم تاخدي قرار بالمخاطرة في مراحل مختلفة من حياتك عشان تعدي من سلمة للتانية، فاهماني؟

أومأت وداد برأسها متفهمةً في نفس اللحظة التي دلف فيها دون استئذان ذلك الشاب الأنيق وسيم الطلة إلى المكان فاستدارت نحوه مع رئيستها التي نهضت فاردة ذراعيها لهفة لاستقبال عناق منحها إياه قبل أن ينحني مقبلًا كفَّها وهو يقول بطريقة تمثيلية:

– صباح الخير يا سعادة المستشارة، يومك جميل يا ست الكل.

بابتسامة حنون استقبلت هي طريقته قائلة:

– صباحك جميل يا بو البَكَش كله، أية رياح حلوة دي اللي ألقت بيك عالشركة زي ما بيقولوا؟ والَّا أقولهالك بالبلدي، إيه اللي رماك عليا وعايز إيه؟

أطلق في المكان ضحكةً مرحة ثم التفت نحو وداد آمرًا:

– فنجان قهوة زيادة الأول، عايزك يا أمورة إذا سمحتي تروحي تعملهولي أروق بيه دماغي بس من دوشة المحاضرات اللي لسه راجع منها دي، وبعد كدا نشوف مع سيادة المستشارة أنا عايز إيه.

أمام كلماته توقفت وداد ذاهلة، أحرجتها إشارته التلقائية وما

ألقاه لها من أمر دون تفكير أو قصد، لم يكن يعرفها، ولم تكن تعرفه، ملامحها البسيطة ربما وقوامها الضئيل هما ما منحاها عمرًا أصغر من عمرها الحقيقي، وقدرًا أقل من قدرها في المكان، أهانها بطلبه فلم تستدرك حنقها إلا بعد الانفجار به في وجهه محتدة:

– القهوة دي تروح تعملها لنفسك، أنا مش الشغالة اللي جابوها لسيادتك هنا في الشركة.

صاحت بالعبارة دون وعي وبشكل مفاجئ اتسعت له عيناه اندهاشًا في حين اتسعت ابتسامة فوق وجه إشراق هانم التي مدت يدها مربتة على كتف جلال ابنها وهي تقول بنبرة ضاحكة:

– أخيرًا يا وداد شفت حاجة استفزتك وطلعت من جواكي العفريت؟ لا ده أنا أشكر الصدفة بقى!

استشعرت وداد شيئا من الحرج بعد اندفاعها أمام نظرات الشاب المعلقة بها ورئيستها تتابع:

– معرفتكوش ببعض، ده جلال يا وداد، ابني اللمض اللي مش مسموحله أبدا يقوللي يا ماما قدام الناس، زي مانتي شايفة أنا لسه صغيرة ومينفعش تطلع مني الأحجام دي.

كانت تتحدث بوجه مبتهج التفتت به نحو جلال مكملة:

– ودي وداد يا جلال، السكرتيرة الجديدة بتاعتي، بنوتة شاطرة زي مانت شايف كدا بس محتاجة لسه تاخد على جو الشغل.

تمتمت الفتاة بعين مطرقة في شكل اعتذار على الرغم من بعض

الحنق المتبقي داخلها:

– تشرفنا يا أستاذ جلال، وآسفة بجد لو كنت انفعلت على حضرتك.

تمتم:

– الشرف ليا يا أستاذة وداد، أنا اللي آسف، متزعليش مني واعتبريها مجرد لماضة بس زي ما المستشارة قالت.

منحت الثالثة النظرة المعلقة بينهما بعضًا من الوقت، قبل أن تنهها بتصفيقة من كفيها وهي تقول:

– طيب، يلا عشان ورانا شغل، روحي انتي بقى يا وداد لأستاذ محسن استلمي منه ملف مصنع اللبن زي ما اتفقنا، وسيبيني أنا وجلجل أشوف سر زيارته الغير متوقعة دي إيه.

ألقت عبارتها وهي تمسح بيدها على رأسه بينما هو عيناه لا تزالان معلقتين بالفتاة أثناء رحيلها حتى خارج الغرفة قبل أن تسأله:

– قوللي بقى، مكانش عندك محاضرات في الجامعة النهار ده والَّا إيه؟

بدا الشرود على ملامحه في التفاتته نحوها، فكررت على مسامعه السؤالَ مرة أخرى ليجيبها بنظرة استفهامٍ سارحة قبل أن ينفغر ثغره عن عبارة لا علاقة لها بسؤالها البتة:

– تفتكري هتروح تجيب القهوة؟

رفعت إحدى حاجبيها وهي تنظر إلى عينيه المعلقتين تجاه الباب قبل أن يلوح شبح ابتسامةٍ فوق شفتيه: ابتسامة معجب.

***

– صدفة، أول مرة اتقابلنا كانت صدفة، تقدر تقول إنها أحلى صدفة حصلتلي في عمري وحسيت بيها.

بشيء من الحنين تسيد نبراته رغم الحزن نطق بها جلال وهو يفرغ آخر ما تبقى من زجاجة الماء البارد في الكوب المستقر على المنضدة الصغيرة أمامه قبل أن يكمل:

– كانت مختلفةً، طلت عليا بسحر غريب مش عارف أوصفلك تأثيره، وأخاف وصفي يفقده معناه.

قالها وهو يمسك بالكوب دون أن يرفعه سارحًا في شفافيته التي باتت شبيهةً بذكرياته المستطردة:

– بمجرد ما شفتها حبيتها، حب حقيقي يا دكتور، حاجة كدا زي اللي بتسمع عنها في الأفلام وبيسموها حب النظرة الأولى.

لمح إبراهيم بطرف عينيه اختلاجتها، هل أفلتت يدها المنديل عمدًا أم أنه انفلت بغير قصد من بين الأصابع المرتعشة؟ وهل شعرت هي بذلك أم أنها اندمجت بعينيها المحدقتين وكيانها كله مع ذلك الذي واصل حديثه:

– بغض النظر عن كل حاجة وصلنالها النهار ده، بس الحقيقة إني زمان لما عرفت وداد، حسيت باللي كان ناقص في تكويني،

كأني حد ولقى بقيته.

مهتمًّا أنصت إبراهيم لكلماته، هو يدرك تحديدًا أي وضع نفسي يخامره، يتفهم علميًّا ذلك الصراع الدائر في رأسه هربًا من الانسياق في دوامة حزن تسحبه لاكتئاب، كان يحاول التشبث بشطآن النجاة في عقله الباطن، وقد وجد برًّا هنالك دُفِنَت فيه مشاعره القديمة.

املأ قلب أحدهم بحزن جم، ثم امنحه تربيتة، وتأمل تحوله أمامك لوعاء احتياج، هذا تمامًا ما كانه جلال، قلب ضاق من الألم في احتياج ماس لثغرة تنفيس ألقاها إليه سؤاله، فتشبث بها مطلِقًا إحساسه وعواطفه المكبوتة لسنوات عبرها.

– بيقولوا الحب مبيصنعوش غير اكتمال قلبين، بس الحقيقة إن اللي بيخلق الحب فعلًا، هو قلب اكتمل باتنين.

ما زال يحادث الكوب، يبتسم له وسط كلامه، تفصح شفتاه أمامه عن ابتسامات قصيرة كان يرسمها في لحظات صمته بين الحين والآخر وهو يتابع:

– وداد بالنسبالي يا دكتور مكانتش مجرد زوجة، كانت الجزء اللي ناقصني عشان أعرف أعيش.

– إنت كداب!

بنبرة متهدجة صاحت بها وداد في حنق مرير تقاطعه مقاومةً رغبة عارمة أمام الرجلين في البكاء، استدار الدكتور إبراهيم بهدوء نحوها، وتركها بفيض مشاعرها المستنكرة تصيح:

– أنا عايزة أفهم إيه لازمة كل الكلام اللي بيتقال ده؟ هيفيدنا بإيه باب الكدب اللي بيتفتح ده يا دكتور؟

لم يحرك جلال من وضعه قيد أنملة، فقط أطرق برأسه أمام الكوب نحو أرضية المكان، بينما رفع الأول رأسه عن راحته ليجيبها وهو يحك ذقنه بكفه قائلا:

– لازمته كبيرة جدًّا يا أستاذة وداد، التاريخ المرضي لأي حالة مرتبط حتميًّا بتاريخ أقرب الناس ليه، إحنا كلنا نتايج لتراكمات نفسية حوشها القريبين فينا وصنعوهالنا، وعشان أنا أفهم شريف صح، لازم أفهمكوا إنتوا الأول، لازم أدور في حكايتكوا على طرف الخيط اللي اتخلقت منه العقدة، كان وارد أسألكوا الأول عن سبب الطلاق، بس ده مش هيكونله أثر محدَّد وأنا معرفش في الأصل إنتوا قبلها كنتوا عايشين إزاي، فاهماني؟

لم تجبه، فقط صمتت وهي تمط شفتيها معتصرةً دمعةً تقاتل للخروج، كلمات جلال ما زالت تحلق في سماء الحجرة من حولها، يتردد صداها في الأرجاء مخلفة في عقلها ضجيجًا صريحًا نظرت به ناحية طليقها الجالس في صمت أمامها قائلةً بمرارة الدنيا:

– بتكدب ليه؟ إيه فايدة إنك تدعي حب دلوقتي أنا وإنت عارفين إنه مكانش حقيقي؟

تنهد الآخر أمامها محافظًا على إطراقة رأسه، لم يجاوبها، لم يمنحها ردًّا فالتفتت محتدةً توجه سخطها للآخر:

– خلي اللي حبني أوي ده يا دكتور يقولك على سبب الطلاق.

بين أعينهم تبادل الرجل نظراته ينتظر ردًّا خرج من حلق متحشرج مختنق بصوت جلال:

– لو هو ده السؤال اللي محتاجة فعلًا إجابتي عليه، ف أنا هريحك يا وداد.

قالها ثم التفت نحو إبراهيم مصرحًا بلسان نادم:

– اتطلقنا عشان خنتها يا دكتور.

هنا انسلت من عينها الدموع، مع رده الذي ألحت لسماعه بكت، أرادته أن يعترف، ولم ترغب في اعترافه، بين الشعورين المناقضين لبعضهما اختل توازن عبراتها فذُرِفت، جزء مختبئ من أنوثتها كان يتوق لإنكاره، كانت تعرف الحقيقة لكنها خشيت فظاظة إفصاحه عنها، ليته استكمل كذباته، ولعلها وجدت في كذبه المفضوح أمامها بعض راحة، حالة نفسية معقدة أدركها الدكتور إبراهيم في عينيها فتنهد ساعيًا لتجاوزها وهو يوجه لها سؤاله:

– طب هو قال إنه حبك يا أستاذة وداد، ممكن يكون بيكدب زي ما قولتي، بس المرادي أنا سؤالي ليكي إنتي.

ثم التقط من هواء المكان المفعم بأحزانهم نفسًا عميقًا أكمل به:

– حبيتيه؟

مكث الرد حبيسًا بين شفتيها لثوان اقشعر خلالها جسدها، وبصعوبة انسحاب الروح من نفس متألمة تمتمت:

– حبيته يا دكتور،

للأسف،

حبيته.

***

الفصل الثالث

«سيؤلمك الواقع حتمًا كلما حاولت بأحلامك رصده»

***

قال لي أنه لا يفهم، ما الذي منع حبًّا صادقًا كالذي رآه في أعينهم من الاستمرار؟ ناولني وسط الحديث صورةً كانت طي ملف وضعه في ركن من أركان المكتب.

– أبوك وسط الكلام اداني الصورة دي، نسيها يمكن، بس أنا شيلتهالك هنا في الملف.

صورة مصفرة مهترئة الحواف، بهت التاريخ المسجل على ظهرها بخط يده، وبات القدم فيها بادٍ بفعل الزمن، أمسكت بها متأملًا ما فيها من تفاصيل: النظرة الممتلئة بالسعادة في عين أمي، تلك الانكماشة حول عينيها من ضحكة صادقة كانت تضحكها، نضارة وجنتيها الملامستين لوجهي ووجه أخي، تضم كلينا إليها ومن خلفها البحر هادئًا يترقب، ساكنًا سكون القدر كأنما يحوي في قلبه أسرار الغد، وكأن أمواجه المتوالدة تحذرنا بلغة لا نفهمها، فتنحسر خالٍ وفاضها إلا من حسرة المحاولات عائدة إليه، ليتهكم هو من خلف ظهورنا وفي قلبه الأمواج يمنحها أسرارًا جديدة تتلاشى فور ارتطامها بالشاطئ وراءنا

من جديد...

كان أثر السعادة فوق وجوهنا واضحًا حينها، واضحًا حد استحالة أن يدوم.

***

قصص الحب جميعها تواجهها على أرض الواقع بعضٌ من العقبات، قد يمنحنا الحظ أحيانًا قدرةً على مواجهتها، وقد تجبرنا الظروف في أحيان أخرى على الاستسلام، نظلم الحب كثيرًا إن وضعناه مقررًا وحيدًا لنجاح تجاربنا، أو لمناه وحده على الفشل مغفلين كل ما صاحب الأمر من عوامل قدرية وظروف.

علينا تفهم الأمور جميعها قبل أن نحكم، علينا أن نضع نصب أعيننا الكثير من التعريفات، والأكثر من المفاهيم، هناك تضحية لكل منا فيها قدْر، وقدرة احتمال تختلف نسبها من شخص لآخر، مبادئ وأحكام وظروف لا يشبه أحدنا فيها أحدا، نفس المشاهد لا يراها الجميع من زاوية واحدة، ونفس الحكايات لا تُقْرَأ بذات العين.

– بتقول إن قصة الحب اللي ابتدت بينكم واجهتها شوية مشاكل، ممكن توضحها؟

ألقى عليه الدكتور إبراهيم السؤال، فغاص في أريكته الجلدية أكثر محاولًا استمداد ثقة لنفسه في أحضانها، وباعتماد على قرار اتخذه بأقصى حد للصراحة في حديثه تكلم:

– أمي يا دكتور، أمي كانت هي المشكلة الظاهرة الوحيدة في

بداية حكايتنا.

قاطعته هي معترضة:

– لأ يا جلال، أمك مكانتش هي العائق الحقيقي قدامنا، انت بس اللي مغمض عينيك أو عايز تعلق شماعات غلطك عليها.

رفع عينيه نحوها، ومط شفتيه في استنكار لما قالت، ثم تابع كأنه لم يسمع شيئًا:

– هي نفسها يا دكتور عارفة اني مش بكدب المرادي.

هي نفسها شافت أكتر من مرة محاولات أمي المستميتة عشان نبعد عن بعض ونلغي القصة من أولها، شافتها أكتر من مرة وهي بترشحلي ناس غيرها، وحكيتلي كتير عن الضغوط اللي كانت بتحاول تعرضها ليها، وعن أسلوبها اللي اتغير معاها تمامًا من يوم ما لاحظت إننا ممكن نحب بعض.

قالت تحدثه وكأن لا ثالث في الغرفة معهم، لم تعد تشعر بوجود الدكتور الذي حشد اهتمامه كله في مراقبتهما:

– أنا أمك لما جاتلي في يوم يا جلال تعرض عليا فلوس عشان أبعد عنك رفضت، مع إني فترتها كان أكتر شيء ممكن أكون محتاجاه هو الفلوس، وأما خيرتني بينك وبين استمرار شغلي في الشركة معاها اخترتك إنت، عارف ليه يا جلال؟ عشان كنت محددة اختياري، وعارفة إن الحاجة الوحيدة اللي أنا محتاجاها فعلًا هي راجل يحسسني بالأمان، الأمان الحقيقي اللي يستمر

وميتغيرش مع الوقت، إحنا اللي بنختار يا جلال مش الناس هما اللي بيختارولنا، الناس دي بتبقى حجج، أسباب، وأمك كانت مجرد سبب؛ حبي ليك كان أقوى بكتير أوي منه، بس إنت لأ، فما تجيش تقوللي دلوقتي إنك أُجبِرت عشان مش هصدقك ولا هلاقي لكلامك جوايا صدى مقنع، أمك كانت اختبار من القدر عرفت أنا بيه حجم تمسكك الفعلي بيا.

سألها لائمًا إنكارها لكل ما فعل:

– وأنا متمسكتش بيكي يا وداد؟ إنتي شايفة فعلًا إني معملتش أي حاجة في حياتي تكون دليل على حب حقيقي شيلتهولك واختصيتك بيه من دون كل الناس؟

أجابته والدموع المنهمرة من عينيها تهدج صوتها المنسل إلى أذنيه:

– الحب مش كلام مرسل يا جلال، الحب تضحية، وإنت اللي اخترت لوحدك في نهاية الطريق تضحي بيا، مش عشاني.

– أنا كل اللي عملته يا وداد كان عشانك، إنتي ليه مش مقدرة إني محيت كل خطوط المستقبل اللي كانت مرسومالي بسببك؟ ليه مش شايفة إني مفكرتش في حاجة غير فيكي، وف إني أفضل جنبك؟ كل الحكاية إني استغليت آخر طاقة ليا في التحمل والاستيعاب عشان نبقى لبعض، وأما وصلت لنقطة كل اللي محتاجه منك فيها مجرد فرصة تانية، لقيتك رافضة تديهالي، لقيتك واخدة قرار نهائي بسحب الثقة من غير حتى ما تشاوري قلبك جواكي اللي كنت براهن عليه، واللي وعدتيني

من أول يوم جمعنا فيه بيت واحد إنك هتخليه دايمًا أساس لكل قرار هناخده، ولكل أزمة هنتعرضلها، فاكرة إنتي إيه من كل ده يا وداد؟

– فاكرة إيه؟

***

– شكلي معقول كده يا أبيه؟

انبثق السؤال عبر شفتي أصغر شقيقاته التي انهمكت أمام المرآة في ضبط الطرحة على رأسها مدققةً في مدى تناسقها مع المكياج الذي تضعه، بشرود ودون تدقيق أجابها مع هزة رأس بسيطة:

– حلو يا بثينة، شكلك حلو.

اتسعت ابتسامتها أمام المرآة، ثم شرعت في إضافة بعض الحمرة لوجنتيها في حين انشغلت أكبرهن في رسم حاجبيها باحترافية بعد انتهاء الأخرى التي انحنت لتلميع حذائها الخاص بينما وقفت الوسطى بكامل جاهزيتها إلى جوار الباب في انتظارهم مشيرةً إلى بيجامته المنزلية التي ما زال واقفًا بها تتساءل:

– إيه يا أبو علي، إنت مجهزتش كل ده لسه؟

لم يسمعها، لم يكن معهن على الإطلاق، كان بكل كيانه ومشاعره هناك، مع الزفة التي تعالى صوتها من الشارع بالأسفل، يتخيل فرحة حبيبة عمره وداد بفستانها الأبيض وسط حشود المهنئين، تحتضن بكفها الرقيق كف شريكٍ تمنى لسنين أن يحتل مكانه، بصعوبة أخفى

من عينيه حسرة دفينة، دائرًا في أرجاء المكان بين شقيقاته كالتائه ممثلًا الانشغال بشيء لا وجود له، ذلك الجرح العميق في روحه كيف له كشقيقهم الأكبر أن يبديه؟

كررت شقيقته الوسطى على مسامعه السؤال فتمتم:

– خلصوا إنتوا عشان تلحقوا الزفة ومتسيبوش بنت عمكو لوحدها، خلوني أنا جسمي مكسر من الشغل النهار ده مش عارف ليه، تقريبًا كده خدت دور برد.

كانت حجةً واهيةً حاول بها تبرير اضطرابه، لم تتفهمها سوى أكبرهن التي أخرت خطواتها في النزول وراءهما بعض الشيء لتتوقف ممسكة بالباب قبل انغلاقه خلفها ملتفتة نحوه وهي تقول بلهجة حانية:

– أنا عارفة إن اللي عندك مش برد زي ما بتقول، إنت سبب تعبك باين على فكرة.

ارتعشت شفتاه أمام كلماتها محاولًا الإنكار لكنها لم تمنحه الفرصة.

– تعالى على نفسك وانزل يا حسن، لازم تنزل، مش عشان زي ما قلت منبقاش سبنا بنت عمنا لوحدها، بس عشان إنت النهار ده اللي مش صح تكون لوحدك.

لم يحاول الاعتراض هذه المرة، ولم يستنكر قولها، التوت شفتاه فقط مقاومة عبرات وليدة التمعت بها مقلتاه فسارعت هي

بإشاحة وجهها عنه لتمنحه حرية البكاء قائلة:

– اوعى تفتكر إن حبك كان ضعف يا حسن، إنت عمرك ما كنت ضعيف يا خويا، واحد زيك شايل هم تلات بنات زينا مش غريب أبدًا عليه إنه يحب، ومش ضعف منه أبدًا إنه يحس بوجع خسارة الحب ده، بس أنا هقولك كلمة إنت بنفسك قلتهالي يوم ما فسخت خطوبتي من سنتين: «مش مهم تعجبنا ريحة الورد، المهم يكون مقطوف لنا».

ارتفع في تلك اللحظة صوت نداءات الأخريات لها من الخارج يستعجلنها فاستدركت ببعض العجل:

– مش هطول عليك، بس أنا محتاجة كمان شوية أشوف أخويا الكبير اللي بحترمه واقف رافع راسه قصاد الناس كلها تحت، عايزة أشوفك بتباركلها بنفسك، وإنت مؤمن بالنصيب اللي شايلك حاجة أحسن.

قالتها وهي تستعد لإغلاق الباب خلفها والرحيل دون إضافة فاستوقفها مقتربًا منها ثم فرد ذراعيه ليضمها بهما إلى صدره قائلًا بصوت تهدج إمتنانًا وعاطفة:

– ربنا يخليكي ليا يا نعمة، أنا متشكر أوي.

دفنت رأسها بين ضلوعه مقاومةً رغبة في البكاء للحظة قبل أن ترفع عينيها تجاهه وهي تقول بلهجة مرحة:

– مش عايزة المكياج يبوظ، هستناك تحت، إوعى تتأخر.

جاوبها بإيماءة من رأسه ثم أفلتها لتلحق بهم مغلقًا الباب وراءها ليفسح المجال أمام دموعه المحتبسة، بكى بحرية أطفأت بعضًا من النار المستعرة بداخله... يحتاج ألمنا المشتعل أحيانًا لبعض من العبرات كي يهدأ.

لم تنسل الدموع لأكثر من دقيقة فوق وجنتيه، مسحها بكف أزالت رعشاته كلمات شقيقته منذ لحظات، ثم انتظر حتى هدأت أنفاسه برغم ارتفاع صوت الضجيج بالأسفل قبل أن يدلف إلى حجرته ملتقطًا قميصه الأبيض الذي أعده لمثل تلك المناسبات.

أصوات الزغاريد من الشارع تتعالى، ها هي ذي وداد تتزوج، وردته التي أمضى عمرًا في مراقبة مراحل تفتحها، ولم تُقطَف في النهاية له.

***

«**أغمضي عينيك**»... قالها وهو يلثم الخاتم المختوم بأول حرف من اسميهما حول إصبعها، ثم همس: «**واذكري دومًا أن لي هنا فوق خنصرك قلبًا نابضًا بالحب، إن أبلته يومًا خطاياه ترفقي، فلا سبيل له في الحياة إلا صفحك**».

***

ارتشف الدكتور إبراهيم رشفته الأخيرة من الفنجان البارد في يده، ثم أغمض عينيه قليلًا محاولًا الاستمتاع بمذاق البن الذي فقد ببرودته الكثير، وضعه أمامه فوق المكتب مرة أخرى، مد يده من جديد لالتقاط القلم مسجلًا به ما تم سرده.

– اتجوزتوا في الآخر، قررتي إنتي تسيبي شغلك، وقررت إنت تسيب الفيلا بتاعة الوالدة وتروح تقعد معاها في شقة بولاق القديمة اللي سابوهالها أهلها.

هز كلاهما رأسيهما، فاستمر في الكتابة لحظة أخرى قبل أن يسأل:

– الكلام ده استمر لفترة قد إيه؟ وهل قاطعت والدتك تمامًا أياميها وللا كان في بينكم برضو منافذ اتصال؟

انشغلت عينا جلال الشاردتين بمتابعة سقف المكان الخالي أمامه وهو يجيب:

– مفيش حد بينفصل تمامًا عن أهله يا دكتور، قلتلك في الأول إني فضلت كتير أوي في محاولات لإقناع أمي بالموضوع، كنت عايزها تشوفنا زي ما احنا شايفين بعض، أو تقدر تقول إني كنت بتمنى حقيقي إن ده يحصل.

سأله الرجل بعد هزة تفهم من رأسه:

– وعشتوا إزاي الفترة الأولانية دي من حياتكم؟ يعني لأي درجة قدرتوا مع بعض تواجهوا الظروف الجديدة اللي فرضتها عليكم الحياة؟

قلب كفيه على بعضهما مبتسمًا وهو يستعيد بذاكرته تفاصيل فترة بدت وكأنه لم ينسها مستفيضًا:

– عافرنا كتير أوي يا دكتور.

سرح مع جزء في الفراغ أمامه ثم أكمل:

– بالنسبالي إنت عادي تتخيل، الشاب المدلل اللي كانت كل حاجة متسخراله ومتيسرة، فجأة لقى نفسه مضطر يشيل مسؤولية بيت بتشاركه فيه إنسانة هو بيحبها في منطقة شعبية مش متعود على حاجة واحدة من كل تفاصيل الزحمة اللي فيها، وعلى قد ما الموضوع كان صعب بس منكرش إنه كان ممتع، كل يوم كنت برجع فيه نقعد أنا وهيا سوا، كان بيفكرني بحلمنا الجميل اللي بنبنيه مع بعض لحظة بلحظة...

أنا كنت مهندس حديث التخرج ساعتها، ومكنتش اشتغلت قبلها غير في شوية شركات خاصة مع ناس من معارف الوالدة، طبعًا قبل ما يتم الجواز قفلتلي هي كوسيلة من وسايل الضغط بعض الأبواب اللي كانت مفتوحة قدامي للشغل... يعني، عمو إياه اللي كان بيديني فلوس نظير تدريبي في شركته لقيته بيقولي إن الشركة حاليا بتصفي عمالة وإنهم هيكلموني في وقت تاني لو احتاجولي، والحاج صديق والدي الله يرحمه اللي كان متفق معايا على مشروع أمسكهوله رجع في كلامه فجأة بدون أسباب، طريقة استخدمتها للوي الدراع، كانت بتحاول تعجزني، بس كل ده ممنعنيش من إني أستمر في تحمل مسؤولية القرار اللي خدته...

ووداد كمان؛ صراحة ما اقدرش أنكر إنها برضو شالت معايا جزء كبير من الحمل، هيا بعد ما سابت شغلها نزلت تشتغل في مجموعة من المكاتب، تطول في واحد شوية ومتستمرش كتير

في التاني، تعمل شغل كتابة في وقت فراغها من البيت، تترجم أبحاث، تطبع ورق...

نسيت أقولك صحيح إننا حوشنا وجبنا جهاز كمبيوتر ومكنة طباعة ألوان صغيرة عندنا في الشقة؛ كانت بتسندنا شوية لما الدنيا تزنق... اشتغلت في أكتر من مشروع، كلهم صغيرين لأن واسطتي مش معايا، بس بعضهم كان بيجيلي منه عائد كويس، وبعضهم كان يدوب بيسد خانة... خلال سنة قدرنا نجيب عربية صغيرة، هيا صحيح كانت مستعملة وطالع عين أبوها، وصحيح عرضتنا كتير لمواقف محرجة، بس أهو، اتفسحنا بيها وشفنا أيام حلوة أعتقد إنها فاكراها.

نظر لها وسط حديثه المتصل وبابتسامة اشتياق أطلت من عينيه همس:

– فاكرة رحلة راس البر؟

منعها كبرياؤها من إجابته بهزة رأس، وإن لم يمنعها بعض الحنين من التمتمة:

– مش فاكرة غير إن شريف ساعتها سخن مننا ودخناله على دكتور هناك ينزله الحرارة، وفاكرة برضو إن أمك مهنيتناش وقتها على ساعة واحدة نقعدها مع بعض باتصالاتها الكتير.

تدخل وسط حديثهم إبراهيم قائلًا يحاول تنظيم الحوار:

– نقطة نظام يا سادة، هو احنا موصلناش أعتقد لمرحلة ولادة

ياسين وشريف، فا خلونا بعد إذنكم نمشي بترتيب الأحداث.

التفت نحوه جلال بنفس الشرود معتذرًا:

– آسف يا دكتور، بس أصل اليومين دول من الأيام اللي مبنساهاش.

قالها وهو يخرج من طيات بذلته السوداء صورةً مد يده بها نحو الرجل قائلًا:

– الصورة دي ليهم هما التلاتة هناك عالبحر، وداد مع شريف وياسين، أنا اللي مصورها، كان عندهم فيها سنتين وأربع شهور بالضبط، مكتوب تاريخ اليوم عليها من ورا.

التقط منه الدكتور إبراهيم الصورة متأملًا ما فيها للحظة قبل أن يضعها إلى جنب الأوراق أمامه قائلًا:

– من الكلام دلوقتي فهمت إنك رجعت تتواصل مع الست الوالدة تاني، وإنها كانت مشاركاكو بشكل ما في تفاصيل حياتكم.

رد جلال وهو يعتدل في جلسته أمامه:

– ما أنا قلتلك يا دكتور، محدش بينعزل عن أهله بشكل تام أو نهائي، بس طالما حضرتك طالب التفاصيل بترتيبها ف أنا هحكيلك.

قالها ثم تابع مسترجعًا ترتيب الأحداث:

– في الشهور الأولانية بعد الجواز كنت بحاول اتواصل معاها، رحتلها الفيلا أكتر من مرة، وعديت عليها كتير في الشركة، كانت بتتهرب من إنها تشوفني ساعات، وساعات تانية كانت مقابلاتنا لبعض مبتتعداش النص ساعة، كلها عبارة عن لوم منها، ومحاولات التبرير والإقناع مني.

هي كانت زعلانة إني عصيت لأول مرة في حياتي أمرها، لأول مرة ابنها الوحيد يقف ضد رغبتها، يمكن وسيلة الوصل الوحيدة فترتها بيني وبينها كانت عم نعيم: السواق الخصوصي بتاعها من زمان، الراجل الأسمر ده اللي حضرتك ممكن تكون لمحته الصبح معانا.

صحيح هو سواق عندنا من أيام ما كنت أنا لسه عيل صغير، بس العشرة خلتنا نعتبره جزء من العيلة، عن نفسي أنا كنت بعتبره برغم إنه مش كبير للدرجة في مقام والدي اللي ملحقتش أوعى عليه.

عم نعيم كان متعاطف لدرجة كبيرة مع موضوع جوازي أنا ووداد، هو راجل أسواني بيفكر بطريقة مختلفة تمامًا عن الطريقة اللي بتفكر بيها أمي، معندوش طبعا حق فرض أفكاره واعتقاداته على المكان، بس كان معاه دايما المفتاح اللي يقرب بيه العقول ووجهات النظر من بعض.

ساعدني مثلا في فترة من الفترات بعد ما خلاها تطلب –بشكل أقنعها فيه إنه من ورايا– من صاحب شركة هندسية كبيرة تعرفه إنه يشغلني عنده لفترة، وبمرتب كويس جدًّا كمان،

تقدر تقول إننا كنا متواصلين بشكل أقرب للانفصال، فاهم قصدي؟

زي اتنين متخاصمين في الفصل وقاعدين على نفس الدكة، لا منهم بيكلموا بعض، ولا فيهم واحد عايز يغير مكانه ويبعد عن التاني، هيا كانت بتمثل دور اللي بيكره ومش قادرة تنفذه بحذافيره، وأنا كنت بمثل دور اللي استغنى عنها وهو أصلًا عمره ما فكر في كدا ولا يقدر عليه.

كنت أفوت شهور مروحلهاش فيهم عشان أوحشها، وارجع بعدها أكثف محاولات اتصالي عشان تعرف إني لسه هنا، وإني لسه محتاجلها، لعبة قط وفار فضلت أنا وهيا لفترة بنلعبها مع بعض لحد ما نبتة حبي أنا ووداد طلعت للنور، ورزقنا ربنا منها بشريف وياسين.

قالها مستعيدًا شعور اللحظة الروحانية العظيمة تلك حين احتوى طفليه لأول مرة، فابتسم ابتسامة امتنان رمقتها وداد بنظرة مستنكرة في حين بادله الدكتور إبراهيم مثلها وهو يدرك أثر الماضي العميق عليه، لم تتفهم هي ذلك، ولم تعترض أيضًا عليه، فقط التقطت جزءًا من حديثه في النهاية وهي تقول ببعض سخط:

– بتتكلم على إنك كنت لوحدك اللي بيضحي عشان المركب تمشي، مقلتش ليه للدكتور إني حاولت معاك أكتر من مرة نروحلها ونطيب خاطرها؟ مقولتلوش ليه إني اتصلت بيها كتير من وراك عشان تيجي تشوفك أيام تعبك في البيت؟ محكيتش إني رضيت بالعيشة معاها في الفيلا احتراما لطلبها وراحتك بعد

ما خلفنا العيال؟ وإني في مقابل ده استحملت المرار لسنين؟ كل الحجات دي إنت ليه مقلتهاش؟

بددت بعباراتها الاعتراضية ابتسامته، أو أن طيف ذكراه كيفما حل رحل، فنظر نحوها للحظة مستنشقًا من هواء الحجرة كميةً كبيرة من الهواء البارد حاول بها استيعاب الواقع قبل أن يومئ برأسه المكدود أمامها مشيرًا بيديه نحوي متمتمًا:

– زي ما قالتلك بالضبط يا دكتور، هيا فعلًا عملت كل ده.

ثم تابع الحكي.

***

فتح الباب بعد الطرقات فوجدها أمامه، أمه، تلك التي عاندها هو في زواجه وعاندته هي في القبول، على مدى عام كامل مر عليهم في بيت الزوجية المتواضع بقلب تلك المنطقة الشعبية لم تزره، كمفاجأة على عتبة الباب كما عهدها وقفت قوية، ثابتة، يغطي الجمود قدرًا من مشاعرها، ارتباك أصابه ودفعه لتطويقها فرحًا بكلتا ذراعيه وهو يهتف:

– أنا مش مصدق إنك أخيرًا هنا.

شعر بضغط ذراعيها حنوًا للحظة على ظهره، قبل أن تدفعه بعيدًا عنها وهي تقول بصوت هادئ شابه نظرتها إليه:

– عرفت من نعيم امبارح إنك جبت توأم.

أفصحت لها عيناه عن فرحة لا مثيل لها وهو يفسح أمامها المجال لتدلف إلى الداخل بخطواتها البطيئة قائلًا:

– أيوة يا أمي الحمد لله، جالنا شريف وياسين، اتصلت كتير بيكي وكان نفسي تكوني حاضرة فلحظة وصولهم، شعور مش قادر أوصفهولك والله.

تبادر إلى ذهنها أن تخبره بمدى إدراكها لهذا الشعور، لكنها استعاضت عن ذلك بقولها الجاف المقتضب وهي تدور بعينيها في أركان المكان البسيط:

– أديني جيت.

ثم استطردت وهي ترمقه بنظرة ذات مغزى:

– ده لو الست مراتك سمحت طبعًا.

لم يتوقف عند إشارتها وهو يفتح ستائر المكان المعتم ليمتلئ بنور شمس الظهيرة الآتي من الخارج قائلًا بحماسة:

– دي هتطير من الفرحة بجد أما تعرف إنك هنا.

كان يتحدث وهو يحاول حمل حاجياته وملابسه الملقية في الأرجاء بإهمال مكملًا:

– معلش الدنيا مكركبة شويتين، وداد أصلها آخر شهور الحمل مكانتش بتقدر على شغل البيت، وأنا زي مانتي عارفة، خايب في عمايل البيت ومبعرفش أحط حاجة في مكانها.

أكملت جولتها الاستكشافية في المكان بعينيها، تأملت جهاز الكمبيوتر القديم الموضوع فوق منضدة خشبية متهالكة أمام كرسي بلاستيكي غطته الحاجيات المتراكمة عليه، وتلك الأسلاك المعقدة فوق الأرض وعلى الحائط هنا وهناك، ثم عادت لترمقه بنظرة استهجان ساخرة وهي تقول:

– مطلعتش عمايل البيت بس اللي إنت خايب فيها.

التقط ما تقصده فسارع بالتهرب وهو يخبرها:

– ثواني معلش بس هدخل أصحيها عشان نايمة في الأوضة مع العيال وأقولها إنك هنا.

ثم توقف في منتصف المسافة مرتبكًا من فرط انفعاله ليسألها:

– قوليلي الأول بس أجيبلك إيه تشربيه؟ شاي؟ وللا أنده عالكشك اللي تحت يطلعلنا كازوزتين حاجة ساقعة؟

– كازوزتين؟ لا ما شاء الله واضح إنها أثرت عليك بزيادة.

قالتها بنفس ذات النبرة التي حاول مرارًا التهرب منها، ثم استطردت بغير اكتراث:

– متجيبش حاجة، روح صحي اللي هتصحيه، أنا مش جاية أشرب كدا كدا، نعيم واقف مستنيني تحت ومش ناوية أطول عشان ورايا اجتماع في المكتب.

من عشرتهم كان يتفهم أسلوبها، يدرك أيضًا مدى عنادها،

وقدرتها على ترويض كل مشاعر الضعف بداخلها وقتما لزم الأمر، لذلك وفر على نفسه جهد الاعتراض، ولم يطالبها بمزيد من الوقت للبقاء، فقط هز رأسه متفهمًا ما أعلنت عنه وهو يتجه مع ارتباكه أمامها نحو باب إحدى الغرفتين المنغلقتين في المكان مكررًا عبارته:

– دي هتفرح أوي بجد أما تشوفك، مش هتصدق نفسها والله أنا واثق.

قالها وهو يقبض بيديه على مقبض الباب ويفتحه بهدوء حاول أن يتناسب والنائمين في الحجرة من خلفه، فاستوقفته هي بعبارة أخرى قائلة:

– وشك خاسس أوي يا جلال، واخد بالك إنت وللا محدش بيقولك دلوقتي الكلام ده؟

استدار نحوها يرمقها بنظرة حملت دفقة حب، ثم هز كتفيه بلا معنى مبتسمًا قبل أن يعاود مرة أخرى تسلله إلى داخل الغرفة المعتمة، لحظات أمضاها بالداخل، استرقت السمع خلالها لبعض الهمهمات الخافتة وهي تقف منتظرةً بالخارج كاتمةً الاضطراب الذي اختلج به صدرها، لحظات بدت لها طويلةً أطل برأسه بعدها من الداخل يشير إليها أن تعالي، فتقدمت ملتقطة أنفاسها وبخطوات اختفى وسط تباطئها الارتباك خطت إلى داخل الغرفة بعد أن أشعل هو زر إنارتها لتستقبل أمامها كل شيء.

فراش يحتل المساحة الأكبر من المكان، ترقد وداد فوقه بعين نصف مفتوحة، وتلتصق خصيلات من شعرها فوق جبهتها المتعرقة

تمامًا كالتصاق منامتها الصيفية الخفيفة بجسدها، تلك التي مدت يدها لتعديلها من فوق رأسي الجسدين الصغيرين المجاورين لها، كالملائكة كانا، طفلان نائمان تتحرك أجسادهما بأنفاس نقية طاهرة لا دنس فيها، لم تجد وصفًا حقيقيًّا وافيًا لذلك الإحساس الذي بادرها حين رأتهما، أقل ما شعرت به حينها لم يكن أبدًا ليوصف، لم تسمع عبارة وداد الوخمة التي قالتها بصوت ناعس ترحيبًا بها، ولم يسترع انتباهها لقول ابنها: كم هما جميلان.

بأصابع لم تفقد بعد حنوها تحسست وجنتيهما الناعمتين، وبانفصال تام عما حولها مدت يدها ترفع أحدهما وتضمه لصدرها الدافئ مربتة على رأسه الصغير الذي اضطرب لجزء من الثانية قبل أن تعاود أنفاسه رتابتها من جديد بين ذراعيها أمام عيني والديه الذين تبادلا نظرة مختلسة مترقبة قطعتها هي وهي تسأل:

– ودا ياسين بقى وللا شريف؟

تردد الأب قبل إجابتها وهو ينقل بصره سريعا بين الرضيعين في حين جاوبتها الأم دون تفكير:

– شريف اللي في حضنك ده يا طنط، ودا ياسين؛ أخوه الكبير، سبقه للدنيا بتلات دقايق.

قالتها وهي تشير إلى ذلك الآخر الذي جاورها والذي تحرك جفناه قلقًا بفعل الأصوات المحيطة به قبل أن ينفجر في صراخ اعتادته فمدت يدها تحمله مهدهدة قبل أن تكشف صدرها وتلقمه إياه ليهدأ من جديد.

– شفتي يا تيته بقى أحفادك حلويين ازاي؟

قالها جلال محدثًا أمه وهو ينقل بصره بينها وبين زوجته المترقبة معه لردها، فرفعت عينها نحوهم، ثم دارت ببصرها في أنحاء المكان متمتمة وكأنها لم تسمعه:

– بس المكان هنا حر عليهم أوي، معندكوش تكييف في المكان ده؟ العيال يا حبة عيني كدا تفطس.

تحفزت ملامح وداد في حين ابتلع جلال ريقه وهو ينهض باتجاه المروحة المنطفئة في ركن المكان قائلًا:

– هنجيب تكييف بإذن الله، احنا متفقين مع بعض على كده من فلوس الجمعية اللي هنقبضها كمان كام شهر، حاليًّا ساعات بنشغل المروحة دي لما الحر بيزيد.

لوحت له بكفها وهي تقول:

– لا، مروحة إيه اللي هتشغلها وهما عرقانين كدا؟ إنت بتستهبل؟ خليها مطفية زي ما هي، العيال لسه ضُعفا ومش ناقصة ياخدوا دور برد في السن ده.

مال طرف شفتيه بحمل ابتسامة لاهتمامها الواضح بهما وهي تتابع:

– التكييف أنسبلهم من المروحة، حاجة تضبط حرارة المكان اللي قاعدين فيه عشان يناموا نوم مستقر عن كدا شوية.

حرك كتفيه متمتمًا:

– قريب إن شاء الله، ربنا يكرم بس لحد ما نعدي الكام شهر الجايين دول.

بلهجة رسمتها آمرةً لتمحي عنها صفة الرجاء قالت:

– لا كام شهر ولا كام يوم، إنتوا تلموا حاجتكوا الفترة دي وتيجوا تقعدوا عندي في الفيلا، أوضتك هناك فاضية محدش في المكان بيستعملها، والتكييف أهو مركون جواها مبيعملش حاجة، وأهو العيال يكبروا في جو مناسب وأهدى بعيد عن صوت الزحمة والتخبيط اللي طالع من الورش اللي حولين المكان دي.

حينها، وبعد عبارتها الأخيرة صمت الاثنان، فقد كان كلامها إيذانًا ببدء مرحلة جديدة من علاقتهما ببعض، مرحلة مختلفة.

***

الفصل الرابع

«بقدر التوقعات الحالمة تكسونا الخيبات»

***

طرقات خجلى على الباب الموارب قطعت أمامه طريق السرد وأمام خواطري رحلة استرسالها، فالتفت كلانا على إثرها نحوه مراقبين أزيز انفتاحه البطيء الذي كشف لنا عن الوجه الواقف وراءه؛ يطالعنا بعينين لم يزل أثر النعاس منهم بعد، مترددًا وقف أمامنا برأسه الأقرع وذلك الجرح القطعي من أعلى الجبهة حتى منبت حاجبه الأيسر؛ يستأذننا بنظراته الدخول: **عسلية**، صاحب الملامح التي لم تحمل نصيبًا من اسمه، وأول من لاقيت يوم استرداد وعيي في هذا المكان، لا أعرف أكنية كان الاسم؟ أم لقبًا لعائلته؟ لكن الجميع هنا اعتاد دعوته بذلك.

– صباح الخير يا عسلية، مش عوايدك الصحيان بدري كدا، في حاجة؟

استقبله الدكتور إبراهيم بسؤاله، فبدا عليه للحظة الارتباك متمتمًا بلسان ثقيل:

– سمعت صوتكم من ورا الباب فقلت يعني!

بحث عن كلمات يكمل بها عبارته لم يجدها إلا في نظرتي المتأملة لملامحه، فتمتم وهو يبادلني مثلها بصوت خفيض:

– إنت خارج النهار ده خلاص يا زميلي؟

لم ينادني يومًا بغير تلك الصفة، هذا الذي شاركني في المكان أيامًا سيصعب عليَّ حقًّا نسيانها، بادٍ أنه سيشاركني شعورًا بالفقد إبان الرحيل، أمضينا هنا وقتًا لن تستهين به الذكرى، أومأت له بالإجابة أن نعم، فلوى شفتيه ضاغطًا على أسنانه من خلفها وكأنما يحاصر شعورًا ألم به قبل أن يلفظه بكلمة واحدة:

– هتوحشنا.

قالها بصدق فطري استرجع معه عقلي ذكرى مشهد اليوم الذي تخلى فيه الموت عني حين استعدت الواقع من جديد، ورأيته.

***

ها أنذا، الناجي من موت تمناه بكل أسف وحسرة، اليوم بكل الخيبة أستفيق، عدت برغم رهاني على الرحيل، ما زلت هنا، ما زلت أتجرع الواقع الدميم حد الثمالة، لا أدرك كم أمضيت من وقتٍ في غيبوبتي، لكنه انتهى الآن بعينين تمارسان وظيفتهما الطبيعية في الانفتاح، وعقل يستعيد قدرة الإدراك شيئًا فشيئًا.

لم تزعجني رائحة العطن المحيطة بي في المكان قدر انزعاجي من البقاء حيًّا قادرًا على تمييزها، سخطي من تلك الأنفاس في صدري يفوق كل سخط يجانبه، ها هو ذا الواقع يبث في رأسي كبداية سموم

أسئلته التلقائية المأفونة.

أين أنا؟ وما هذا المكان؟ أرقد على فراش مغطىً بملاءة بيضاء مائل للصفرة لونها، عتمة المكان تسيطر، لكني أستطيع بشيء من الجهد تمييز حواف جدرانه رمادية اللون، وتلك الكتابات العشوائية المنتشرة فوقها، جدران صماء بدون نوافذ؛ أوحت لي من عقلي الباطن بصورة رسمتها للقبور وسرعان ما تلاشت، لا تتسع القبور لشيء إلا الموت.

حاولت التدقيق في الظلمة قارئًا بعض المكتوب، كلمات جميعها مألوفة تحمل سمتًا واضحًا للحياة: «للذكرى الخالدة»، «ليس لدينا ما نخشاه»، وعدة أسماء مع خواطر شوق حفرها أصحابها في الأركان بأيديهم، ولا يحمل عقلي فيما بينها أي رابط.

أين أنا؟ تلك الهمهمات والأحاديث المتنامية إلى أذني من مكان ما لا أحدد مصدرها، ولا أميز منها شيئًا، كأنها تحدث داخلي، حاولت بصعوبة تحريك يدي مستندًا على الحائط الرطب مقزز الملمس بجانبي للنهوض لأدرك وجود ذلك الخرطوم المتصل بوريدي والذي علق المحلول الشفاف في نهايته على قائم الفراش المعدني.

أجزاء متفرقة من جسدي تحيط بها الضمادات، في إحدى الأماكن العلاجية أنا إذًا؟ ربما، لكن أي نوع من المشافي هذا الذي يحوي غرفًا لا نوافذ فيها؟ أشعر بالاختناق، وبرغبة عارمة في الصراخ كتلك التي تخالج كل جنين يستقبل العالم لأول مرة، أجبرني الألم في جسدي على العودة إلى وضع السكون، وعقلي المبتئس يعمل جاهدًا لاستيعاب المشاهد كلها.

ببعض ومضات متداخلة لا أفهمها حاولت ذاكرتي المساعدة... مبضع فارغ، وبعض قطرات دم، وهج نيران حول سيارة منقلبة وسط صرخات وحالة من الهرج، عصفور أزرق يلتقط شيئًا من فوق الأرض ويحلق، زجاج متسخ تصنع أنفاسي الساخنة فوقه مساحات من البخار؛ أرسم بإصبعي عليها أشكالًا مبهمة كتلك المقيد بها عقلي ولا يجد من بينها لوعيه الكامل مفرًّا.

متاهة تكتنفني وأقاومها من دون جدوى، انتشلني من براثنها ذلك الظل المتسرب عبر باب أدركت وجوده لتوي في ركن من الأركان المحيطة، يتسلل متمددًا فوق الأرض باتجاهي سابقًا صاحبه الذي لحقه حتى عتبة الباب لتكتمل هيئته الخارجية في النهاية أمامي، هزيلًا يمسك عصًا ممسحة طويلة بين يديه، ويمنع الضوء المنبعث من خلفه تبيني لكامل تفاصيله.

تراجع إلى الوراء قليلًا حين رآني، بدا وكأن وجودي يفاجئه، ولربما توجس خيفة كتلك التي توجستها مع اقترابه واتضاح ملامحه أكثر لعيني، قمحي البشرة كان برأس حليق ووجه يحمل جرحًا قطعيًّا بطول الجبهة وحتى منبت الحاجب الأيسر، قسمات لا تمنحك شيئًا من راحة، كشفت لي العتمة المنقشعة ببطء عن ابتسامة استقبلني بها صاحبها، وأظهرت صف أسنانه الصفراء قبل أن يهتف:

– حمدلله عالسلامة يا زميلي، إيه يا عم كل ده؟ خمس أيام مغيبب؟ إنت كنت رافع صيدلية قبل ما يجيبوك على هنا وللا إيه؟

تسببت جملته في ازدياد لحالة التشتت الذهني التي أعاني منها مذ

صحوت، فانعقد حاجباي بشيء من الحيرة وعلق لساني في الجوف الجاف قبل أن تخرج منه الكلمات متحشرجةً وبصوت واهن:

– أنا فين؟

بدا الاستنكار على ملامحه واضحا وهو ينحي ممسحته إلى الجدار قائلًا:

– إنت في المصحة هنا يا زميلي.

مصحة؟ ما الذي تعنيه الكلمة تحديدًا؟

– مصحة إيه؟ ومين إنت؟

سألته وأنا أصارع مرةً أخرى للاعتدال أمامه، فسارع يحاول معاونتي وهو يمد يده تجاهي مصافحًا مع رده:

– أنا زميلك هنا في المكان، تقدر تقولي يا عسلية، ده اسم الشهرة بتاعي.

ببعض جهد رفعت يدي لمصافحته دون أدنى شعور داخلي بالألفة نحوه، فشد عليها بكفه المتعرق مستدركًا:

– إنت بقى إسمك ايه؟ وإيه حكايتك بالضبط؟

خامرني الاضطراب بسؤاله، حقيقةً لم أملك لحظتها الإجابة، بدت غربتي وكأنما امتدت من جهلي بالمكان إلى نفسي، بكل الصدق لم أكن أعرف حقًّا من أنا، ولا علم لدي عن كيف أتيت.

***

بجوار السيارة التي تصاعد منها الدخان الكثيف وقَفَت، تراقب نعيم الذي انحنى برأسه على مقدمتها المفتوحة يحاول مد يده لفتح غطاء المياه الملتهب من فرط السخونة قبل أن يتراجع ملسوعًا بحركة حادة وهو يزفر في حنق:

– يادي الهم، العربية مولعة.

سألته:

– معرفتش لسه الدخان ده طالع منين؟ مكانت لسه كويسة ومفهاش حاجة.

أشار لها بالصبر وهو يتتبع ببصره الأسلاك والخراطيم المعقدة أمامه لاستيعاب الأمر قبل أن يتراجع معتدلًا للوراء باحثًا فيما حوله عن قطعة قماش مسح بها يديه مغمغمًا:

– مش حاجة كبيرة إن شاء الله، الظاهر بس إني مبصيتش على المية الصبح قبل ما نتحرك، الأيام دي حر زيادة واحنا برضو فضلنا مشغلين التكييف زيادة عن اللزوم.

ثم دار حول السيارة ليفتح حقيبتها الخلفية ملتقطًا منها وعاءً بلاستيكيًّا فارغًا حمله في يده موضحًا:

– هنسيبها تبرد حبة على ما أجيب ميه من عند الجماعة هنا؛ أملى بيها الريداتير بدل ما ندخل في وش سلندر وتبيتنا جنبها، ربنا يستر.

هزت رأسها بنصف فهم لما قاله وهي تلوح بالمروحة الخشبية

فوق وجهها مسترجية من الرطوبة المحيطة بعض الهواء مع تمتمتها:

– طيب، روح شوف هتعمل ايه.

قالتها وتابعته ببصرها وهو يرحل باتجاه ذلك العجوز الجالس إلى جوار البوابة شارحًا له الأمر قبل أن يدلف عبر البوابة الحديدية معه إلى الداخل، وتخطى البوابة خلف العجوز الذي أشار له ناحية صنبور مثبت في منتصف الحديقة دائرًا ببصره في المكان الرحب متحركًا فوق العشب باتجاه غايته، مساحة خضراء يحتل مقدمتها ذلك المبنى ذو الطابقين الذي يبدو ظاهرًا للمارة من الخارج، وعلى بعد منه في نهايتها ذلك المبنى العريض المكون من طابق أرضي واحد لا تحتل النوافذ كثيرًا من مساحة جدرانه الطوبية المطلية بدهان أبيض.

انحنى بظهره لفتح الصنبور واضعًا الدلو أسفل فوهته التي تدفقت خلالها المياه منشغلًا بمواصلة التأمل في تفاصيل المكان، لفت انتباهه ذلك الأشعث الجالس وحيدًا على مقعد الانتظار في الشرفة الخارجية للمبنى القريب، هو يعرفه، الأسطى حسن، لاقاه أكثر من مرة في تلك المنطقة الشعبية أسفل منزل وداد، لاحظ البؤس المرتسم على هيئته ووضع جلوسه، لكنه لم يتفهم حقًّا أسبابه، أيضًا هو –ذلك الحزين البائس– من موضعه البعيد رآه.

– نهارك فل يا أسطى حسن.

هتف بها نعيم ملوحًا له بيديه في محاولة لتبديد التوتر المحيط وهو يتابع بطرف عينه امتلاء وعائه بالماء، بادله حسن التحية دون النبس بكلمة، وعيناه الشاردتان تحملان نظرةً متسائلة رفع الأخير

أمامها الوعاء الممتلئ لتوه وهو يهتف:

– العربية محتاجة شوية ميه.

حرك حسن رأسه في صمت مرة أخرى، ثم تابع من مكانه الرجل الذي اتخذ طريقه مع حمله بعد إغلاق صنبور المياه إلى الخارج، مستعيدًا مع رحيله أمامه ذكرى كان يبحر بين تفاصيلها، وشعورًا بالأسى.

***

لطالما واصل خداع نفسه، لطالما استمر في ادعاء الثبات بعد زواجها على الآخرين وهو لا يدرك أنه وحده المخدوع بين الجميع، لشهور بعد ارتباطها خاصم الشارع، خاصم عمله وورشته المقابلة لعش زواجها جاعلًا أكبر هم له التهرب من أسئلة شقيقاته المتكررة حول حقيقة ما به وأسباب ذلك البؤس الذي أصابه.

رسم الحزن خطوطًا على وجهه، وأضاف هالات من السواد أسفل عينيه التي فقدتا بريق الرغبة في الحياة، مرارًا سألوه عن السبب، مرارًا حاولوا تسليط الضوء على ما يحاول بكدٍّ إنكاره، لكنه كان عنيدًا لدرجة يصعب اختراقها، وحدها أكبرهن كانت تفهم، وتحاول لأحيان احتواء حزنه، لم تشعره يومًا بالشفقة، بيد أن شعورًا تملّك منها تجاهه، دعمته دومًا بحديثها عن تحمل القدر وتقبل النصيب، وعن أهمية أن يعاود عمله من أجل نفسه، ولأجلهن.

– أنا مش بهون من خسارتك، بس حاول متخسرش أكتر.

كانت تلك كلماتها التي انصاع بعد شهور لها، وافقها في النهاية ليس اقتناعًا قدر شعوره بالمسؤولية تجاههن، عليه أن يعاود الحياة وعمله من جديد، عليه أن يستمر محاولًا نسيان كل ما عاش في الماضي آملًا تحقيقه، عليه أن يتقبل كل يوم رؤيتها مع من اختارت، وأن يخفي حقيقة مشاعره التي لم يصرح يومًا في السابق عنها رغم كونها واضحة جلية في كل تصرفاته، شهور مرت كادت نفسه فيها أن تصدق أمر النسيان الزائف، ذلك الشعور القائم على أساس واه من الحنق بداخله.

«كما تركتني سأتركها، كما نسيتني سأنساها، وكما اختارت لنفسها طريقًا جديدًا سأختار لنفسي طريقًا لأجله أستمر، لم تتوقف الحياة يومًا على أحد، ولن يحدث»، حدث نفسه مرارًا بذلك، **«لدي مسؤوليات عليَّ مواصلة تحملها، في عنقي من الشقيقات ثلاثة، لكل منهن متطلبات، ولكل منهن أحلام عليَّ السعي لتحقيقها»**، بتلك الأساسات البائسة أعان نفسه على النهوض مرة أخرى، وشد بها أزر خيط ضعيف من رغبة النسيان فيه، لكنها لم تكن بأي من الأحوال كافيةً لشد أشرعة سفينته المكدودة أمام ريحٍ جديدة هبت عليه مع خبر ولادتها.

ذلك الخبر الذي اجتث قلبه من تربة وهم غرس فيها قدميه ليلقي به مرة أخرى بين براثن التيه، كان يدعي النسيان، ويمثل التقبل أمام حقيقة يعجز عن تقبلها، لكنه في الواقع لا يفعل، ليس صلبًا كما ظنوا، وليس أقسى صلابة على نفسه غير حقيقة تتجدد كل يوم أمامه وتخبره بأنها ضاعت.

ولادتها استعادت ألمه مرة أخرى، لكنه في تلك المرة لم يستسغ فكرة الانهيار أمام شقيقاته، قسى على نفسه بمواصلة التمثيل واصطناع التماسك، ها هو ذا مرة أخرى يقف بين أخوته وصفوف المهنئين على ولديها التوأم، يلامس وجنتي الطفلين كما لامس وهو صغير بكفه الصغير وجنتها، نفس الكف، لكنه لم يكن أبدًا نفس الشعور.

في صباحه التالي صحا، وكآلة عودها الروتين على التكرار أشعل سيجارة من علبته تمنى أن تكون الأخيرة، تلقى صباحات أخواته بنصف ابتسامة، ثم ترك الفطور المعدَّ له مشعلًا سيجارة أخرى قطع معها الطريق إلى ورشته.

الهواء ملبد حوله في الشارع بلون أساه، والمارة من حوله كلهم كأشباح، لا يعنيه منهم أحد، يرفع بين التارة والأخرى أحدهم يدًا له بتحية لا يملك بالًا للرد عليها، وصل لورشته ككل صباح ففتحها بعقل وجيع لا يحمل بين طياته إلاها، خائضا في صراعاته المعتادة مع ضميره اللائم، ما الذي ينقصه لنسيانها؟ تلك الصورة التي صنعها لحب تغيرت صاحبته، في عقله كيف لا تتغير؟ كيف؟ لقد شهدت عيناه زواجها، شهدت مشاعره التقاء كفها في عشق بكف شريك تمنى أن يكون مكانه، وشهد بنفسه ذلك الانتفاخ المتنامي في بطنها يومًا بعد يوم إيذانًا بوصول دليلٍ جديدٍ على خسارته الواقعة بالفعل منذ عام كامل.

حين رآها تعود أمامه من المستشفى بطفليها لماذا تألم؟ لِمَ استعاد قلبه الوجع القديم كأنما لم يشف أبدا منه؟ وكأن الأيام

تمضي فقط لتنميه، يا لهذا العشق في قلب ضرير، بات سُمًّا ما كان في الماضي دواه.

استعادت ذاكرته مشهد السيارة الفارهة التي توقف بها سائقها أمام ورشته في ذلك اليوم، يهبط من مقدمتها بلباس السائق رجل أسمر في أواخر الثلاثينيات من العمر سارع بفتح بابها الخلفي لهبوط تلك السيدة ذات الشعر الرمادي المصفَّف بعناية تناسبت مع ملابسها الأنيقة، استرعى المشهد حينها انتباهه، فتابعها وهي تشير لسائقها بإشارة ما قبل أن تتركه متجهةً نحو البناية المقابلة له، تلك التي تقطنها وداد، مكمن حبه الضائع، واختفت السيدة في مدخل البناية المعتم بينما أضاء هو الفضول دواخله.

بشيء من الجرأة اقترب في اتجاه السائق بنية فتح حوار معه قائلًا:

– معلش ياباشا بعد إذنك إنت راكن كدا قدام محل أكل عيش.

رفع الأخير كفه نحو صدره معتذرًا وهو يقول:

– معلش يا اسطى إنت شايف الشارع هنا ضيق ومفيش مكان تاني أقف فيه، استحملني بالكتير ربع ساعة بس لحد الست هانم ما تخلص زيارتها فوق وتنزل.

تردد حسن محاولًا صبغ استفساره بتلقائية بات ساذجًا في اصطناعها وهو يغمغم:

– والله إنت كدا بتحرجني، بس هيا لا مؤاخذة الست هانم طالعة العمارة دي تزور مين؟

حمل استفهامه تدخلًا سافرًا لم يجد السائق داعيًا حينها لاعتراضه فأتاه منه الرد المتوقع وهو يقول:

– بتزور ابنها المهندس جلال، الراجل اللي ساكن في الدور التاني هنا لو تعرفه.

ارتعشت شفتاه برغم التوقع وهو يتمتم:

– عارفه، أه.

أنى له ألا يعرف ذاك الذي اغتصب منه حلمًا وحيد؟ أنى له إنكار اسم بات يجاور دومًا اسمها؟ تغاضى عن خواطره محاولًا نفض السخط الوليد بداخله وهو يواصل أسئلته للرجل الذي بدا ودودًا بشكل مشجع:

– غريبة، أنا أول مرة أشوف حد من عيلة الباشمهندس جلال جي يزوره هنا.

وبتلقائية متأصلة في طبعه رد الأخير:

– لا عادي مش غريبة ولا حاجة، الموضوع كله خصومة أسرية بينهم خدت وقتها مش أكتر، وإنت عارف في الآخر زي مابيقولوا الدم بيحن، الست هانم أول ما عرفت أن ابنها خلف جت جري عشان تشوف أحفادها.

لم يكن حسن على دراية بشيء من تفاصيل الخصومة تلك، فاستحثه نهمه لمعرفة المزيد إلى دعوة الرجل لكوب من الشاي وهو يشير له قائلًا:

– اتفضل طب يا باشا، ميصحش تفضل واقف جنب العربية كدا، تعالى اقعد معايا هنا في الطرواة نشربلنا كبايتين شاي.

قالها وهو يجلب من داخل ورشته كرسيًّا وضعه أمام الأخير قبل أن يعرفه بنفسه قائلًا:

– أنا حسن، محسوبك حسن، أسطى سمكري هنا زي ما حضرتك شايف، وابن عم الست وداد مرات الباشمهندس جلال على فكرة، يعني مش غريب.

قالها محاولًا بث نبرة الود فيها رغمًا عنه لتشجيع الرجل على الحديث وهو يمد له يده بالسلام مستطردًا:

– متشرفتش باسم حضرتك.

صافحه الأخير بدوره رافعًا إحدى حاجبيه قبل أن يتخذ مقعده إلى جواره مجيبًا:

– تشرفنا يا أسطى حسن، أنا نعيم.

برغم من أن سنينًا مرت على لقائهما هذا إلا أنه لم يفتأ يذكر تفاصيله، لم يزل يذكر حوارهما القصير في هذا اليوم جيدًا، ذلك الذي تلاه بأيام حضورهما بالسيارة من جديد، دون أن يهبط منها أحد فيهما، فقط توقفا أمامه، بادله نعيم من داخلها التحية، ليظهر بعد دقائق من مدخل البناية المقابلة جلال حاملًا في يده حقيبة كبيرة، وتجاوره بحملها الصغيرين وداد، وبصمته المكتوم في هذا اليوم راقبهم يستقلون السيارة التي انطلقت بهم على فورها مبتعدة في الأفق.

انتظر ليلتها عودتهم من جديد، وطال انتظاره لليال أخرى، لكنه أدرك في النهاية أنها الأقدار، تمنحه وداعها الصارم من جديد.

***

«على كدا سبتوا البيت اللي اتجوزتوا فيه، ورحتوا تعيشوا مع الست الوالدة اللي كانت رافضة جوازتكوا دي من الأول». تمتم بها الدكتور إبراهيم أمامهم محدثًا نفسه في بطء وهو يعدل من وضع عويناته فوق أنفه متأملًا ملامحهما المتوجمة بعد انتهاء جلال من حديثه قبل أن يتابع:

– في اعتقادي إنها كانت فرصة لبداية جديدة تقدروا خلالها تتخلصوا من كل المشاكل النفسية اللي بين حضرتِك والست إشراق.

ألقى عبارته المجزأة على مسامعهما ملتقطًا قلمه من جديد ليدون فوق الأوراق أمامه بعض الملاحظات، بينما ندت من بين شفتي وداد التي قصدها بالعبارة ضحكة ساخرة مريرة وهي تغمغم:

– قصدك بداية لفصل جديد من المشاكل.

التفت الرجل نحوها مانحًا إياها دعوة لم تكن بحاجة إليها لاستكمال عبارتها، كان القهر المتأصل في روحها هو دافعها الأقوى في مواصلة الكلام، نظرت إليه متجاهلة تمامًا وعن قصد هذه المرة وجود طليقها معهما في المكان، حاولت رسم ابتسامة متهكمة فوق شفتيها لم تكن بالقدر الكافي من التوازن وهي تستطرد حاكية:

– لو في حد أقصى للكراهية تعرفه يا دكتور مش هيجي جنب كراهيتي للراجل اللي قاعد قدامك ده هو وأمه ف شيء.

لم يحاول جلال إبداء أي تعليق على عبارتها، لم يبد عليه العجب أصلًا لسماعها، ولم يرغب الدكتور إبراهيم في مقاطعة حديثها الذي أكملته بعد تنهيدة صمت.

– أنا عشت عشان خاطر البني آدم ده هو وعيالي سبع سنين من الذل في بيت صاحبته، متقبلتش ولو للحظة وجودي، كنت بمني نفسي كل يوم بالأمل، بصبر نفسي وأقول معلش استحملي، الوقت بيغير القلوب ويحننها، كانت كل يوم الصبح تبعت الشغالة تصحيه ينزل يفطر معاها تحت وأنا أنزل لوحدي أجيب فطاري بنفسي من المطبخ.

حتى في أعياد ميلاد العيال كنت أقف دايمًا وراهم في آخر الصف عشان مضايقش حضرتها بوجودي، وكان هو كل اللي بيديهولي طبطبة رخيصة في آخر اليوم مع كام كلمة، معلش، عشان خاطري استحملي.

لما العيال كبروا شوية وقلتله يسيبني أنزل أدور على شغل يشغلني ويبعدني شوية عن القفص اللي حبست نفسي عشانهم فيه رفض، قاللي إن الظروف اتحسنت، وإن شغلي مش هيفيد فايدة وجودي مع العيال في البيت.

كل يوم كان قلبي بيتحرق ألف مرة مع كل كلمة مسمومة بسمعها، وكل نظرة احتقار بتتبصلي.

كان بكاؤها يؤلمها، أمسى هذا واضحًا في سكتاتها المتكررة وسط الحديث لالتقاط الأنفاس.

– لعلمك أنا عمري ما حاولت أربي الكره في قلب ولادي ناحيتها، حتى أما كانوا بيزعلوا من زعيقها فيهم أو تعنيفها لواحد منهم كنت بقولهم لازم تحبوها، لازم تسمعوا كلامها، دي جدتكم، كنت عبيطة يا دكتور ومفهمتش إن ده يوم عن يوم كان بيقلل مني وبيضغط على كل الحاجات الحلوة اللي جوايا.

منحته نظرة غل أثناء حديثها وهي تكمل:

– وهو برضو مكانش شايف فعليًّا إن ده شيء صعب، كان مصدق أن كلمتينه الخايبانين فعلًا بيريحوني، مفهمش إن سكوتي كان سكوت اضطرار بس عشان الدنيا تمشي، وطول ما هي ماشية كان بيقول خلاص مفيش شيء هيتغير، ولا في داعي أصلًا نغير شيء.

سكتت لالتقاط أنفاسها التي خرجت ثقيلة ثقل جبال الكبت الراسخة فوق صدرها وبصوت خالطه البكاء تابعت:

– أنا تعبت أوي يا دكتور... حقيقي تعبت.

قالتها ثم دفنت رأسها بين راحتيها مستقبلة عليهم فيض الدموع، بكت كثيرًا، كثيرًا جدًّا، وهي تواصل الحكي.

***

ارتفع صراخ ياسين الطفل ذي الأعوام الثلاثة عاليًا أمام رصة

مكعبات هدمها بقصد شقيقه شريف وهو يركض متقافزًا في أنحاء الغرفة الواسعة في فيلا جدته، عابرًا من خلف أمه التي انتشلت من صمتها المتحفز مع صوت الصراخ قبل أن تلتفت قابضةً على ذراعه بقسوة صنعتها العصبية المفرطة التي تكتنفها، اعتصرت أصابعها ذراعه جاذبةً جسده نحوها قبل أن تهبط على وجهه الصغير بصفعة من كفها الحار؛ تردد صداها في أرجاء المكان مع صوتها العالي وهي تصرخ:

– اخرس يا حيوان مش عايزة دوشة، بتضايق أخوك ليه؟ هه؟ بتضايقه ليه؟

توجم الوجه الصغير من الضربة واحمرت وجنتاه وبدا موشكًا على الانفجار في بكاء هيستيري كتمه خوفًا أمام نظراتها النارية وهي تشير بسبابتها أمامه أن حاذر صائحة:

– ولا نفس، مش عايزة أسمع حس واحد فيكوا دلوقتي، انتوا فاهمين وللا لأ؟

توتر جو المكان مع صياحها، واحتبست الصرخات في حلق الصغيرين، كانت تصب جام انفعالها وحنقها في وجهيهما اللذين اختنقت كل المشاعر بداخلهما فصمتا يرتعش جسداهما خوفًا من تلك التي حملت قدرًا من الثورة في لحظتها؛ بدا كافيًا لحرق الجميع.

ثلاث سنوات لها في هذا المكان، ثلاث سنوات ظنت في بدايتها كل خير بمرحلة جديدة أملت فيها بشائر التغيير، لكن شيئًا من المشاعر المتحفزة تجاهها حقًّا لم يتغير، حقًّا أحبت إشراق ولديها، أحبتهما

كأحفاد، يربطها بهما خيط دم مصدره ابنها جلال، لكنها يومًا لم تغفل كراهيتها لزوجته، لم تمح من رأسها أبدًا ذلك الاقتناع التام بصورة في مخيلتها لخبيثة اقتحمت مسار حياتهما وغيرته لطريق غير الذي رسمته هي كأم له، فداومت على معاملتها كغريبة، كمُهمَل محتَقَر؛ وُضِعَ لتتراكم فوقه الأتربة ويُنْظَر له بامتعاض، كل حديثٍ لها لا يُسمَع، وكل فكرة تدلي بها لا تُنفَّذ، وأي اقتراح أو مشاركة لا يُلقَى لها بال أو اعتبار؛ حتى في مناسبات الاحتفال بأعياد مولدهما، عزلتها، ولم تترك لها الحق يومًا في أبسط حقوقها كاختيار هداياهما أو ما شابه.

تحت وطأة تحكمات لأقصى الحدود عاشت يعزيها حبها لجلال وطفليها، وتربيته فوق كتفها بين الحين والآخر، ورجاؤه المتكرر أن اصبري قليلًا، ولأجلي تحملي، تحملت كيلًا فاض بها حمله، فباتت أكثر تحفزًا مع طفليها في كل شيء، وطالبته بالرحيل مرارًا ورفض، طالبته بالعودة سويًّا إلى البيت الضيق القديم، فتهرب وتغافل واصطنع التناسي.

«ياوداد، احنا لما اتجوزنا اتفقنا إننا هناخد بعض على عيوبنا، ولو أمي عيب وحمل عليكي استحمليه، متنسيش إنها الجزء اللي مقدرش انفصل عنه، حاولي معلش، افعليها لأجلي، لأجلنا، ولأجل كل ما حققناه وسنستمر إلى الأبد في تحقيقه».

عبارات معتادة دأبت على استعادتها في لحظات القهر وهي تقبع حبيسة غرفتها مع طفلين باتا يهابا ثورتها أكثر من أي شيء آخر في فترات استقبال المكان لضيوف حماتها السيدة الأرستقراطية ومعارفها.

اليوم هو يوم احتفالها الصغير الذي أقامته بحضور لفيف

من القيادات الحكومية وأصحاب المناصب العليا إعلانا عن عزمها كسيدة من سيدات المجتمع المدني الترشح لمجلس النواب، نوع من استثمار العلاقات؛ كانت ناجحة جدًّا في تأديته، راحت تسير في بهو المكان بالأسفل متأبطة ذراع ابنها جلال الذي ارتدى حلة سوداء أنيقة اختارتها كالعادة له، مبتسمة بين الحين والآخر لهذا وذاك، داعية الجمع بالاستمتاع وتقضية سهرة ممتعة.

– مش كنتي سمحتي لوداد تنزل تقعد معانا شوية في الحفلة هي والعيال بدل حبستهم فوق دي يا أمي؟

همس جلال بالعبارة لها وسط ضجيج الكعوب المتداخل مع قرع الكؤوس ونغمات الموسيقى المنبعثة في قلب المكان، فرمقته بنظرة عابرة، ثم التفتت ملوحة لأحد القادمين من بعيد وهي تجيبه ضاغطة خلف ابتسامتها على أسنانها:

– وبعدين معاك يا جِلجِل؟ قاصد يعني إنت تحرق دمي في يوم زي ده؟ ما قلتلك مش عايزة أشوفها النهار ده يا أخي.

توقفا عن السير ملتفتًا نحوها قائلًا بصوت لم يرغب لدونهما سماعه:

– يا أمي زيادة أوي اللي بتعمليه معاها، أنا نفسي أفهم لحد امتى هتفضلي تعامليها كده؟ وداد أصيلة ومتستاهلش منك كل الكره ده.

استمرت في مبادلة الابتسام لجميع المحيطين وهي تشير له في هدوء متمتمة:

– وإنت ليه مفسر تصرفاتي على أنها كره؟ أنا عمري أصلًا ما كرهت حد زي ما انت شايف قدامك أهو، بحب الناس وكل الناس بتحبني.

في استنكار لردها رفع إحدى حاجبيه وهو يتمتم:

– يا أمي!

ضربت هي على ظهر يده بكفها تمنعه من مواصلة الحديث، وتستحثه على متابعة السير معها قائلة:

– جلال، مش وقته الكلام ده دلوقتي، مش هنسيب الحفلة والناس ونفضل نتكلم في مشاعر الغندورة.

بامتعاضٍ يخفيه واصلَ السير معها في اتجاه ذلك السبعيني المتأنق الذي احتشد حوله عددٌ من الأشخاص كان بينهم اثنان من حرس التأمين؛ بدت أسلحتهم بارزةً أسفل سترتيهما، وإلى جواره وقفت تلك الشقراء التي ابتسمت لجلال تحييه مع انحناءة بسيطة من رأسها في حين صافح العجوز المتأنق والدته مقبلًا يدها وهو يقول:

– متشكرين على السهرة اللطيفة دي يا مدام إشراق.

أطلقت ضحكةً قصيرة وهي تجيبه بحفاوة مبالغة:

– معالي الوزير متقولش كدا، ده شرف لينا، هي الحفلة برضو تكون حفلة من غير حضور معاليك؟

تراجع الرجل بابتسامته الوقور مشيرًا لتلك الشقراء التي تجاوره

قائلًا:

– أقدملك سيادة المستشارة إشراق هانم يا جيجي، صاحبة الدعوة والفيلا وكل اللي حواليكي هنا.

ثم استطرد محدثًا السيدة أمامه:

– ودي جيجي يا إشراق، بنتي، خريجة إعلام القاهرة بتقدير امتياز، إنتي فاهمة بقى يا ستي فيرس الإعلام منتشر إزاي عندنا في العيلة.

قالها ثم أطلق لضحكته العنان مهتزًا معها جسده فمنحته هي ابتسامة مجاملة قبل أن تشير بدورها ناحية جلال الذي وقف مرتبكًا قائلة:

– ده بقى الباشمهندس جلال، ابني.

حياهم بدوره في حين سألت الفتاة بلكنة مهتمة:

– ويا ترى تخصصك في الهندسة إيه يا باشمهندس؟

جاوبها في الوقت الذي انغمست فيه والدته في حوارات جانبية مع السيد الوزير:

– عمارة، تخصصي في الهندسة عمارة.

قالها بعقل شارد عج بصخب وضحكات المصطنعين من حوله، لا شيء من هذا حقيقي، وجوه وضحكات بلاستيكية لا يشعر بالراحة بينها، لا شيء بتاتًا يشغله سواها، تلك التي وقفت في ركن مستتر بالأعلى

خلف سور الدَرَج غير مسموح لها بالنزول؛ ترمق الجمع المحتشد حول مأدبة المصالح بعين من قهر، وتحاول التقبل.

***

الفصل الخامس

«إنه قدرك؛ ذلك المجهول دومًا في النهاية ينتظر»

***

تلك امرأة تحملت الكثير، همست بها لحظات الصمت بين حروفه وهو يواصل الحكي واصلًا لي أركان القصة ببعضها، كالذي صُقِل من الوجع في نظره كانت، أخبرني أن العبرات في عينيها لم تنِمْ بتاتًا عن ضعف، كانت دموعًا لا تقبل التربيت، ولم تُذرَف لاستجداء شفقة.

تطرق في حكيه ليوم رآني أول مرة راقدًا تتصل محاليل الإعاشة بجسدي الساكن المثخن بجروح الحادث، صرّح لي بأنه تساءل وقتها أي نوع من النساء هي؟ أي أم تلك التي تجد في قلبها القدرة على نقل ولدها في مثل هذا الوضع والحال لمصحة علاج نفسي؟ قرأت التساؤل في عينيه، ولمحت الإجابة فيهما: «**نحن ننمو من خلال الألم**».

عبارة نطقها وسط الحوار مفسرًا بها من وجهة نظره مشاعرها.

– لك أم يا فتى بحقٍ نحتتها الآلام، فأضحت على شاكلتها قاسية.

ما زال عسلية يشاركنا المكان، يجلس على المقعد الجلدي الوثير إلى جواري متأملًا وجه إبراهيم كأنما يستحثه على متابعة الحديث،

سألته أنا:

– سرحت فْإيه يا دكتور؟

لاح شبح ابتسامة على شفتيه وأخبرني:

– مفيش، بس اللقطات الأولى بيبقالها دايمًا شجنها الخاص.

قالها فانكمشت ملامح ذاك الذي بجواري وهو يهتف:

– اليوم ده أنا كمان فاكره.

ثم اعتدل نحوي ضاربًا بكفه فوق فخذي ليستطرد:

– ساعتها الدكتور كان جي من أول اليوم فاصل تمامًا، سمعته وهو بيزعق برة لعم راضي على المية اللي مغرقة الجنينة، وبيتلكك على أي حاجة مش مظبوطة قدامه، دخل هو وكابتن معتز اللي كان جايبه الديتوكس معاه عشان يشوفوك بعد ما وصلت بيوم.

ثم التفت نحو الدكتور إبراهيم الذي اتسعت ابتسامته مكملًا:

– ساعتها أنا جيت أطلب منك تطلعني التأهيل عشان زهقت، وقلتلك إني مخلص أعراض انسحابي، بس إنت رفضت ووصيت الكابتن يضغطني أكتر ويشيلني واجبات التنضيف والمسح بتاعة المكان كلها لوحدي.

لم يتمالك الرجل نفسه أمام الحنق في نبرة الأخير فانبعثت منه ضحكة قصيرة وهو يشير بيديه نحوه قائلًا:

– تستاهل، محدش قالك تنتكس للمرة الرابعة.

ثم قال يشهدني:

– وللا انت إيه رأيك يا شريف؟ واحد حضر معانا جلسات علاج وتأهيل أكتر من مرة، ومع ذلك كل فترة نلاقيه داخل علينا متهدل تاني، بذمتك؟ مش الضغط ممكن يكون وسيلة علاج سلوكي ناجحة معاه؟

بادلته والفتى إلى جواري النظرات ولم أجب، لم يكن يعنيني بين ما قال كليهما شيء غير الفهم. سألته محاولًا العودة به لإطار الموضوع:

– كانت حالتي عاملة ازاي لما شفتني ساعتها يا دكتور؟

أجاب:

– كنت في عالم غير اللي احنا عايشين فيه، وكأنك على خط بيفصل بين الحياة والموت، ومش مقرر لسه هتروح لمين فيهم. كنت داخل لسه قبلها بليلة، قالولي إنك وصلت في عربية إسعاف ناقلاك من مستشفى مع أم منهارة تمامًا؛ معرفوش يوصلوا منها لأي معلومة عنك، ولا حتى الاسم.

كل اللي عرفوه من الشخص اللي كان معاكو ساعتها إنك طالع من حادثة جامدة، وإنهم لقوا في دمك نسبة عالية من المخدر، كانت مثبوتة في تحليل المستشفى اللي جابوه معاهم.

معتز قاللي إن جملتها اللي منطقتش بغيرها في وش كل الموجودين هيا الحقوه، الحقوا ابني، كانت في انهيار تام،

كفقير بائس يبحث في أطلال مهجورة عن كسرة خبز.

تصورت المشهد راسمًا له في مخيلتي صورة لم أرها متحسسًا مواضع الجروح الملتئمة فوق جسدي قبل زفرة استسلام أطلقتها مع نظرة أطالبه فيها بالمتابعة: «**دعنا نواصل ما بدأناه... لحظة صمت لنسترجع الأحداث... أين انتهينا؟**»

***

هنا تكلم جلال، لم يدفعه حقيقة للحديث غير نظراتها، وذلك الماضي الجاثم خانقًا فوق صدره.

– احنا ليه محاولناش تاني يا وداد؟ ليه مقدرناش نسمع بعض وندي لنفسنا فرصة؟

كان يسألها السؤال المتأخر كعادتنا بعد فوات الأوان مدركًا انعدام جدواه: «**أنا غلطت، معترف إن أنا غلطت، بس غلطي مكانش بدافع خيانتك**».

قال أن لقاءه الأول بجيهان جر وراءه لقاءات أخرى... الفتاة المدللة ابنه صاحب المعالي لاقت في نفسها انجذابًا نحوه، انجذاب لم يشجعها عليه، ولم يرغب أبدًا في تأكيده، على العكس تمامًا واجهه، رفضه، وحذرها مرارًا من الخوض فيه، برغم سعيها فعل، برغم شباكها المنسوجة حوله وضغوط أمه عليه فعل، حاول إثناء الجميع عما يجول بخاطرهم.

يتذكر جلسة جمعتهما تلت لقاءهما الأول بعام أو أكثر بعد

مصارحتها له بحبها، كانا في مكان هادئ قَبِلَ اضطرارًا دعوتها إليه، تنبعث من جنباته الموسيقى التي اختيرت خصيصًا لجو أرادت هي أن تصنعه، وكان هو يقبع مرتبكًا أمامها محملًا بكم من الحيرة والتردد والحرج.

قال لها:

– جيهان أنا مقدر بجد مشاعرك ناحيتي بس فعلا دي قصة محكوم عليها بالفشل من قبل حتى ما تبتدي.

– ليه بتقول كدا يا جلال؟ أنا واحدة بتقولك بحبك.

– بصي، إنتي يمكن تكوني إنسانة مثالية، فيكي كل المواصفات اللي ممكن أي واحد عاقل في الدنيا يتمناها، بنت ناس، مثقفة، غنية، وفوق ده كله جميلة جدًّا. إنتي العرض اللي صعب فعلًا على أي واحد في الدنيا يرفضه، لكن...

– لكن إيه؟

قاطعته بالجملة فتردد محاولًا إيصال المعلومة لها بشكل لا يحمل صلافة أو قسوة:

– لكن العرض ده مش بتاعي للأسف، مش ليا، أنا إنسان خد نصيبه من الحب مع إنسانة تانية واكتفى بيه.

صمتت أمام كلماته تلوك بفمها قطعه من اللادن؛ انهمكت في إفراغ عصبيتها فيها وهي تتابعه بنظرها الحاد الذي اخترق كيانه وهو يتحدث:

– أنا راجل متجوز يا جيهان، واللي متجوزها بني أدمة فعلًا بحبها، ليا منها ولدين دلوقتي؛ معنديش في الدنيا أغلى منهم، وعشان كدا بقولك العرض ده برغم إنه مش سهل يكون لأي حد أنا مينفعش أقبله، هبقى بظلمك لأني مش هديكي أبدًا الحب اللي إنتي فعلًا تستاهليه، إنتي يا جيهان تستاهلي واحد قلبه مدقش لحد قبلك، تستاهلي حـ...

قطعت عبارته مرة أخرى بطريقة انفعالية وهي تقول:

– متشغلش بالك باللي أنا أستاهله، ممكن تخلينا في اللي بنتكلم فيه وتجيب من الآخر؟

قالتها وهي تخرج من علبة سجائرها الفاخرة سيجارة طويلة دستها بين شفتيها نافثة دخانها في وجه ضعفه وارتباكه الشديدين، قالتها وهي تحمله بين ثناياها اللوم على فترة أضاعتها في محاولات التقرب إليه، لم تنبس بلومها ولكنه تلقاه، كان يستوعب أيضًا مصدر قوتها المكتسب من تأييد أمه للأمر، هي الأخرى كانت تشجع تلك العلاقة، كانت تتحين كل فرصة بينهما ليلتقيا، بدافع رغبة داخلها في الانتقام من وداد فعلت ذلك، جاءتها الفرصة على طبق من الذهب، ستحرمها منه كما فعلت هي... حاولت مرارًا إقناعه بترغيبه في السلطة تارة وبمزايا إرضائه لها تارات أخرى، طمأنته أن أحدًا لن يعلم بالأمر إذا ما تم.

وكذلك تلك الجالسة أمامه، برغم محاولاته للابتعاد في تلك الجلسة مع آخر أنفاس لها تبقت من لفافة التبغ بصوت هامس حنون أضافت له أصابعها المداعبة لكفيه الموضوعتين فوق الطاولة الصغيرة بينهما لمسة دفء؛ صارحته خلالها:

– أنا ميهمنيش كل اللي بتقوله ده يا جلال، بتحب مراتك؟ معنديش مانع، خليك بتحبها، مش هتعرف تديني حاجة؟ مش مشكلة، أنا مطلبتش ولا هطلب منك حاجة تديهالي، كل اللي أعرفه إني بحبك، بحبك وبس، ومش عايزة من الوجود أو منك غير حاجة واحدة بس: إنك تبقى معايا، وإني أفضل في المكان اللي يكون مسموحلي فيه بس أقولهالك من غير ما يفصل بيني وبينك شيء أو حد، فاهمني يا جلال؟ أنا بحبك.

بهذا أخبرته، وبهذا علق لسانه أمامها، وتاهت في رأسه كل حلول التهرب.

***

تراجعت الشقيقة الصغرى برأسها للوراء محتمية من الأغبرة التي تصاعدت بفعل ضربات المنفضة في يدها فوق السجادة الموضوعة على حافة النافذة داخل منزل شقيقها؛ الذي جلس على الأريكة خلفها بفانلة صيفية أمام التلفاز يحاول تثبيت الهوائي فوقه لضبط الصورة المهتزة على شاشته، ثم سعلت مرتين متتاليتين وهي تبدد الهواء بيديها قائلة:

– إيه يا أبيه، إنت قاعد في العفرة دي كلها ازاي؟ هي الشقة متنفضتش بقالها قد إيه؟

أجابها دون اكتراث متابعًا ما يفعل:

– متتعبيش نفسك يا حبيبة، الدنيا مكركبة وأنا اتعودت عليها كده، سيبي كل حاجة وتعالي اقعدي معايا شوية قبل ما تنزلي.

مطت شفتيها وهي تضع يدها في وسط جلبابها المشمر لتعاود من جديد تنفيض السجادة قائلة:

– تعب إيه بس يا أبيه؟ إنت بتهزر كدا باين عليك.

رمقها من الخلف بنظرة ممتنة قصيرة دون حديث، ثم أغلق التلفاز مللًا ونهض متجهًا نحو المطبخ وهو يقول:

– هعمل لنفسي كباية شاي، تشربي معايا؟

أتته إجابتها بالنفي وهو يدلف إلى المطبخ ملقيًا نظرة على علب الطعام التي أعدتها هي للتخزين، ثم أشعل الموقد الصدئ واضعًا فوقه البراد منتظرًا غليانه قبل أن يأتيه من الخارج صوتها وهي تخبره:

– على فكرة بثينة أختك مش هتعرف تيجي الشهر الجي، ماشية في التامن خلاص، إدعيلها.

أخذ يراقب فقاقيع الماء المتكونة فوق النار من فتحة الغطاء المكسور للبراد متمتمًا بصوت مرتفع:

– يلا؛ ربنا يقومها بالسلامة، معرفوش لسه اللي جي ولد وللا بنت؟

كانت تتحرك داخل المكان ملتقطة ملابسه الملقاة هنا وهناك في إهمال لإعادة ترتيبها مجيبة:

– بنت بإذن الله، راحت مع جوزها عملوا سونار من فترة وقاللهم الدكتور إنها قمراية صغيرة.

هز رأسه في صمت مأخوذًا بالصفير المتصاعد من البراد مع غليان المياه بداخله، ثم مد يده بمنشفة لالتقاطه من فوق الموقد وصب كوب الشاي الذي تساقط بعض من الماء حوله مع ارتعاشة يده لحظة دخولها خلفه لتستطرد:

– عقبالك يا حسن.

أعاد ضبط يده لملء الكوب، ثم نحى البراد إلى جنب ملتقطًا ملعقة من داخل الحوض مسحها في ملابسه وقلب بها السائل الأحمر داخل الكوب قبل أن يحملها ملتفتًا بها نحوها بابتسامة بسيطة وغمغمة:

– في حياتك.

اعترضت طريق خروجه من المطبخ الذي وقفت على عتبته وهي تواجهه قائلة بشكل مباشر:

– أنا بتكلم جد يا أبيه، مش ناوي بقى؟

أومأ برأسه محاولًا تحاشي النظر إليها وهو يعبر بجنبه من جوارها متجهًا نحو الأريكة في الصالة مرة أخرى متمتمًا:

– بإذن الله، ربنا يسهل.

تابعته إلى الخارج مواصلة حديثها باهتمام حقيقي:

– ما هو ربنا هيسهل لما إنت تنوي، كفاية العمر اللي عمال يضيع من إيدك ده يا أخويا، إحنا كلنا عايزين نطمن عليك ونشوفك ماشي في حياتك زي ما بفضل ربنا وقفت جمبنا في

جوازاتنا إحنا التلاتة.

لم تلمح من ظهره ابتسامة اليأس التي نمت على ركن شفتيه وهو ينحني لوضع الكوب على الأرض أمامه بينما هي تكمل:

– إيه اللي ناقصك دلوقتي بس؟ الشقة واهي فضيتلك خلاص، والورشة بتاعتك الحمد لله شغالة وربنا هيكرمك برزق البني أدمة اللي هتختارها، فيبقى ليه التأجيل بقى؟

لم يجد حقًّا ما يجاوبها به، كان يشعر بالاختناق دومًا كلما تطرقت إحداهن للحديث في هذا الشأن، شيء دفين بداخله يدرك أنهن على حق، وشيء أكبر يمنعه من التقبل، هي، صورتها المعلقة في خياله لم تتغير، ينفض عنها الغبار كل حين ليراها كما يود خياله، سبع سنوات مرت منذ رحيلها مع طفلها عن المنطقة، تعتقها روحه كعطر يزداد سحرًا بمرور الزمن، سبع سنوات أضيفت لعقود انتظاره من دون أمل.

كانت نصائحهم له دومًا بمثابة هراء لا يتخطى سطح عقله، بينما في القلب هي مستقرة ومسيطرة، حتى وإن كان الأمل في عودتها واهيًا، فالبقاء لأجلها يكفيه.

يعيش وحيدًا كظل بلا كيان، يمضي معظم الوقت في ورشته سارحًا ينتظر سيارة كتلك التي رحلت بها لتعود، وفي الليل بجوار نافذته الصغيرة يجلس متسامرًا مع نجوم السماء ونسائم الشارع الهادئ الخالي تقريبًا من المارة حتى يغالبه النعاس، فتمد شمس الفجر أشعتها لتغطيته.

تتبادل أخواته فيما بينهن كل شهر مهمة زيارته وترتيب المكان كحدث مختلف كان ينتظره لتبديد الوحدة بعض الشيء ليس إلا، كل واحدة منهن تزوجت وصارت لها حياة مستقلة بعيدًا عنه وعن كل همومه، يحاولن تعويضه بالقدر المتاح لهن من الاهتمام، والكبير لديهن من الحب والوفاء. تأتي إحداهن تكلمه عن الأمر، فتجدد أسى الحنين بداخله من جديد، ثم ترحل ليبقى هو على حاله البائس مع آماله ينتظر، مؤكدة له التطلعات الحالمة خيالاته، ستعود في يوم ما، حتمًا في يومٍ ستعود.

طالما حدثته نفسه بذلك إلا أن شيئًا من الذهول برغم هذا في تلك الليلة أصابه، كان في ورشته حينها يهم بالرحيل موصيًا الفتى الصغير مساعده بالحضور مبكرًا في الغد.

يتلقط مفاتيحه من فوق المنضدة الحديدة الممتلئة بالشحم ويمد يده إلى مقبض الباب المعدني الجرار ليهبط بثقله إلى الأسفل قبل أن ينحني معلقًا به قفلًا من الصلب تمم على انغلاقه، بجسده المكدود اعتدل اعتمادًا على ركبتيه المجهدتين ثم استدار ليجدها أمامه، تمامًا كما تمنى.

بعباءة سوداء حوت جسدها الذي اختلفت جم تفاصيله، ووجه يحمل من الحزن ما لم يلحظه حينها من فرط الاندهاش، يتشبث بعباءتها من الجنبين طفلاها الصغيران، ها هي ذي ثانية، حلمه الذي عاد أخيرًا:

وداد.

***

– مفيش فايدة، العربية مش عايزة تنطق.

زفر نعيم بالكلمة في حنق وهو يعاود للمرة العاشرة محاولة تشغيل السيارة التي رفضت الاستجابة تمامًا وإلى جواره تحت ظل قريب صاحبتها إشراق هانم التي وقفت ملوحة بمروحتها الخشبية أمام وجهها وقد سبق التململ البادي على ملامحها كلماتها وهي تتمتم:

– طب وبعدين إيه الحل؟ إحنا هنبيت هنا كدا وللا إيه؟ مفيش حوالينا في المنطقة أي ميكانيكي وللا كهربائي يدورهالنا؟

مسح يده بمنشفة مبتلة وهو يقول متلفتًا فيما حوله:

– واضح إن المنطقة هنا معزولة كلها بالفلل، كبيرنا نلاقي سوبر ماركت وللا مكاتب محاماة وعيادات، لكن ورش تصليح وكدا معتقدش.

قالها مشيرا لها بالانتظار، ثم اتجه نحو بوابة المصحة مناديًا حارسها بصوت مرتفع:

– بقول إيه يا ريس، مفيش قريب منكوا هنا ميكانيكي وللا أي حد بيفهم في العربيات؟

أشار له عم راضي بكتفيه بالنفي وهو يرد:

– لا والله يا باشا، المنطقة هنا كلها سكنية، وأقرب واحد منا هيحتاج مواصلة تروحله بيها.

تنامى إلى مسامع حسن الجالس في الشرفة بالقرب منهم صوت

الرجل فنهض محاولا الهروب من بحور خواطره المسيطرة، اتجه نحوهم من موقعه داخل المصحة ليلقي نظرة على نعيم وسيارته التي انفتحت مقدمتها قبل أن يتساءل بصوت خفيض:

– مالها العربية؟

هز نعيم كتفيه مسرعًا بالإجابة:

– مش عارف والله، فجأة وقفت وحالفة ميت يمين ما تدور.

حدثته نفسه لوهلة بتجاوز الأمر، ولكن شيئًا في عقله المكدود أثناه، فوجد نفسه يهبط سلالم المدخل الأربعة مقتربًا من السيارة ونعيم يتابعه شارحًا وقد خالج يأسه بعض الأمل:

– سخنت فا قلت مية الريداتير، زودتها وسبتها تبرد برضو مفيش فايدة، مش فاهم بقى في إيه؟

مد حسن يديه في جوفها متتبعًا بعض الوصلات دون أن يرد عليه بشيء، في حين اقتربت منه السيدة العجوز متوكئة على عكازها الأسود المعقوف تسأل:

– بتفهم إنت في العربيات دي؟ هتعرف تشغلها يعني؟

لم يلق حسن لعبارتها بالًا بينما عرفها به سائقها قائلًا:

– الأسطى حسن جار الست وداد، صاحب ورشة السمكرة اللي قدام البيت عندها.

مع هذه الجملة رفع حسن رأسه بعيدًا عن السيارة وهو يقول:

– مش جارها بس، قلتلك قبل كدا وداد تبقى بنت عمي.

بدا الحرج على وجه الرجل من المعلومة التي أسقط ذكرها سهوًا على حين لوت إشراق شفتيها وهي تتمتم بشيء من التحفظ:

– أه افتكرتك، لمحتك هناك مرة، تشرفنا.

عاود حسن مرة أخرى فحص السيارة بغير اكتراث لنبرتها محاولًا التغاضي عما حوله، بيد أن فضوله ألقى برأسه السؤال فصرح به دون تفكير:

– وحضرتك تبقي والدة الأستاذ جلال، حماتها سابقًا، مش كده؟

أومأت له برأسها تجيبه:

– بكل أسف.

شعر بضيق من عبارتها بدا واضحًا في نبرته وهو يكرر:

– بكل أسف فعلًا.

ثم تابع:

– على فكرة أنا فاكرك إنتي والأستاذ كويس، شفتكوا قبل كدا مرتين، أول مرة في زيارتك ليهم بعد الخلفة، والتانية وراها بكام يوم أما جيتوا تاخدوها هيا وابنك وعيالها من المنطقة.

قالها ببساطة لم تتناسب مع قدم الموقفين اللذين ذكرهما وهو

يدق بيده على جزء ما داخل السيارة أشار بعده إلى نعيم بإدارة محركها قائلًا:

– ادخل جرب تاني كده؟

بسمل الأخير وهو يدلف إلى الداخل واضعًا المفتاح في فتحته الخاصة مديرًا إياه فارتفع صوت المحرك من جديد مع تنهيدة ارتياح أطلقها قبل أن يقول:

– الله أكبر، تسلم إديك ياسطى، الله ينور عليك والله، إنت عملت إيه بالضبط؟

بفتور أجاب وهو يتناول المنشفة لمسح يديه:

– في سلك كان ناطر من مكانه مش أكتر.

ثم لوح لهم بيده وهو يهم بالعودة من حيث أتى:

– بعد إذنكم.

استوقفته وهي تخرج من حقيبتها التي التقطتها من على المقعد الخلفي بعض الأوراق المالية؛ مدت يدها بها نحوه قائلة:

– اتفضل يابني، امسك.

تبادل النظر بينها وبين ما امتدت به يداها للحظة ثم قال:

– أمسك ايه؟ عيب كده.

حاول نعيم توضيح الأمر، لكنها لم تمنحه فرصة وهي ترد:

– هو إيه اللي عيب؟ ده حقك؟

– حقي؟

نطقها بكل الحنق المعتمل في نفسه تجاهها، لم يدرك إن كان مناسبًا ما قاله بعد ذلك أم لا، لكنه أخبرها به:

– لو عالحق فأنا حقي ابنك استحله من سنين، من يوم ما قرر يتجوز وداد.

خرجت العبارة من بين شفتيه دون استئذان أو سابق تفكير كفورة الأبخرة المتصاعدة من قلب بركان وصلت الحمم بداخله حد غليانها الأقصى، ولم يعد باستطاعة شيء كبتها، مشدوهًا يحملق في وجهه بعد العبارة الصريحة الصادمة وقف نعيم في حين أمالت هي طرف شفتيها مفصحة عن ابتسامة أخفت وراءها مشاعرها وهي تقول:

– أنا برضو قلت من الأول أن دي حدوتة ابن العم العاشق، واضح كدا أن السن ليه نظرة مبتخيبش.

لوح بيده أمامها في حنق صائحًا وهو يبتعد متهربًا من كشف حقيقته:

– حدوتة إيه ونظرة إيه؟ خلاص من كلمتين بقينا عادي كاشفين بعض؟ بلاش كلام فارغ، بعد إذنكم.

استوقفته ثانية وهي تهتف بدورها:

– وليه مبقاش كاشفاك وانت عنيك فضّاحة؟ أنا مش جاية أتريق عليك بالعكس، أنا أكتر واحدة قادرة تحسك هنا، عارف ليه؟ عشان مجربة نفس اللي إنت حاسس بيه.

رمقها بنظرة تساؤل وقد اضطرب وجهه أمام عبارتها المباشرة التي جذبت بها انتباهه قبل أن تكمل:

– من أول ماشفتك قدام مكتب الدكتور الصبح وانا عارفة إنك بتحب وداد، مش بتحبها بس، إنت كمان راسملها في عقلك حلم مش قادر تتخيل أي شيء في الكون غيره.

كالمأخوذ حملق فيها مستغربًا كلماتها التي وصفت بكل دقة ما وقر داخله من حقيقة، وكأنها تخترق بعينيها دواخله، اتسعت ابتسامتها أكثر وهي تكمل:

– متستغربش، قلتلك إني حاسه باللي إنت حاسس بيه، وعارفه كل اللي عايز تقوله.

لم تكن ابتسامتها دليل ثقة كما شاءت لها أن تبدو، كان يتخللها طيف من الحزن امتزج بنبرتها التي تابعت بها ما تبقى من حديث لديها:

– نفس حلمك بيها أنا رسمت شبهه لابني جلال، سنين طويلة عشتها كنت شايفاه قدامي بيكبر وبيقرب من إنه يتحقق بالضبط زي منا عايزه، بالضبط زي مانا بتمنى وبحلم كل يوم، مستوعب أكيد إنت معايا الشعور ده، مستوعب البذرة الصغيرة اللي غرستها بإيدك في أرض وفضلت ترويها وتراقبها يوم بعد يوم وسنة ورا سنة، متخيل معنى إنك تحلم لدرجة

تصديق الحلم أكتر من كل حقيقة حواليك، وفجأة تصحى في يوم تلاقيه بيطرح شيء مختلف، حاجة غير كل اللي رسمته في خيالك وبنيتله قصور من وهم.

كان حديثها صادقًا إلى حد مخيف، كانت تضرب كبد مشاعره في دقة ليس لها مثيل، لم تكن تكذب، هي بحق تفهمه. تركها بكل استسلام وضعف تتابع:

– لو بتقول إننا استحلينا حقك زمان لما ابني اتجوز البني أدمة اللي بتحبها، طب ليه متبقاش شايف الزاوية التانية من الموضوع؟ ليه متفكرش في حبيبتك نفسها اللي استحلت حقي في ابني، وسرقته من كيان تعبت أنا العمر كله عشان أحافظله عليه هو وولاده من بعده؟

بلسان علق في جوف الحيرة وقف أمامها لا يقوى على النطق بشيء شاخصَ البصر في وجهها الذي حمل الكثير من حكمة الزمن، كانت تكشف له عن زاوية جديدة من الرؤية، لكل العملات حقًّا وجهان، هذا ما تعلمه من الحياة، وهذا ما تحاول هي إخباره به، قالتها له بوضوح أكبر وهي تعيد يدها بالمال إلى حقيبتها:

– الفلوس دي مثلًا كانت بتاعتك، حقك في مجهود إنت بذلته، بس إنت اللي اخترت تتنازل عنها، محدش أجبرك تعمل كدا، ولو هتعمل كدا برضو مع حقك في وداد محدش هيقدر يمنعك، بس الممنوع إنك تلوم على حد تاني مستسلمش زيك وقرر إنه ميتنازلش عن حقه في حاجة عارف إنها بتاعته.

تسربت كلماتها في عقله كالحمم، كان كالمنوم مغناطيسيًّا أمام حديثها الذي لوحت له بيديها في نهايته وهي تتمه:

– صدقني أنا عمري ما كرهت وداد، أنا بس كرهت الطريق اللي اختارته واتعارضت فيه مع طريقي، كرهت وجودها زي العقدة في مسار كان من حقي كأم إني أمهده لابني، وداد مش وحشة أصلًا، هي بس لبست فستان مكانش لايق عليها... فاهمني يا اسطى حسن؟ متلومش اللي زيي، أنا واحدة مرضيتش إنها تتنازل عن حقها في ابنها ولا عن حلم رسمتهوله، متلومنيش أنا، لوم نفسك، لوم مشاعرك اللي كانت أضعف من قرار كان لازم تاخده لما جتلك ألف فرصة لده.

سكتت قليلًا بعد انتهاء عبارتها الطويلة، كان يحملق في وجهها مغرغرة عيناه، لا يقوى على النطق لسانه المعقود أسفل دقة كلامها، وكانت هي تجول بخاطرها لمحة من الماضي استقطبتها للحظات تمتمت له بعدها ببطء:

– أطيب الزهور روايح هي اللي أغصانها مليانة شوك.

لم يتفهم مغزى الجملة فور سماعها فأوضحت:

– واجهها بحبك يا اسطى حسن طالما شايله جواك، متخافش من اللي ممكن يحصل، ولا من أي ظروف تمنعه، مد إديك وحارب عشان اللي عايزه مهما شفته بيبعد، وساعتها بس ممكن يرجعلك.

***

في الشرفة الملحقة بغرفتها الخاصة المطلة على حديقة الفيلا وقفت وداد تراقب الطريق الخالي في الأفق، وتتابع قلقة بين الحين والآخر عقارب ساعتها التي أشارت إلى الواحدة والنصف بعد منتصف الليل. لفحات الهواء البارد تتسلل عبر فتحات الروب الذي أحكمت إغلاقه حول جسدها وتتجاوزها مرتطمة بدرفتي الباب الزجاجي وراءها ليخلف باهتزازه صوتَ أزيزٍ مرتفع.

برد قارس أجبرها على العودة إلى الداخل محكمة غلق الدرفتين الزجاجيتين خلفها قبل أن تسدل فوقهما الستائر متمتمة بصوت كالهمس:

– إيه التأخير ده كله يا جلال؟ يا ترى بتعمل إيه كل ده؟

شاركها قلقها في الغرفة صوت أنفاس صغيريها الراقدين في سبات عميق لا رغبة لديها في إيقاظهما منه... على أطراف أصابعها خطت كاتمة أنفاسها حتى باب الحجرة تفتحه، ثم خرجت لتعيد إقفاله وراءها عليهما من جديد... صوت منبعث من التلفاز في بهو المكان بالأسفل يعلن عن بقاء أحدهم في الفيلا مستيقظًا.

اتخذت درجات السلم هبوطًا نحوه لتجدها متمددة في استرخاء على كرسيها الهزاز أمام شاشته الكبيرة تتابع فيلمًا من الأفلام الكلاسيكية القديمة على ضوء المكان الخافت، ولما شعرت بالأنفاس وراءها استدارت لتراها عند نهاية السلم واقفة:

– واقفة عندك بتعملي إيه الساعادي؟

لم تشغلها النبرة الحادة التي اعتادتها في السؤال وأجابت:

– الساعة داخلة على 2، وجلال لسه مرجعش لغاية دلوقتي.

بغير اكتراث عادت إشراق هانم إلى سابق وضعها وهي تعلن:

– ومش هيرجع الليلادي، اعتبريه بايت برة يوم من نفسه.

عقدت وداد حاجبيها في عدم فهم قائلة وهي تقترب منها:

– يبات برة ازاي مش فاهمة؟ جلال عمره ما سهر في شغله برة البيت من غير ما يكون قايللي.

رمقتها الأم بنظرة جانبية رفعت خلالها حاجبًا قبل أن تقول في تهكم:

– تصوري ولا عمره برضو عمل حاجة أنا مش راضية عنها؟ قبل طبعًا ما سيادتك تشرفينا، بس عادي بقى دي سنة حياة.

حملت عبارتها لمحة سخرية خاصة استوعبتها الأخيرة منها وهي تقترب ناحيتها أكثر قائلة بصوت حافظت على خفوته:

– إنتي ليه شايفاني كده؟ ليه مصرة طول الوقت تعامليني على إني عدوتك؟ مش فاهمة بجد أنا عملتلك إيه لكل ده؟

مرة أخرى رمقتها بنفس النظرة المتهكمة ثم سألت:

– ياسين وشريف نايمين فوق؟

لم تكن عبارتها ردًّا مناسبًا للسؤال، ولكن وداد ردت:

– عشيتهم وناموا من أربع ساعات، الحضانة بتاخد تلات تربع

طاقتهم طول اليوم.

بعدها استطردت:

– برضو مرديتيش عليا يا حماتي، إنتي ليه بتعملي معايا كده؟

متابعة رد السؤال بمثله قالت محدثتها:

– تعملي إيه لو طلعتي كمان شوية لقيتي واحد فيهم ناقص مش نايم عالسرير جنب أخوه؟

بغير فهم لمغزى الرسالة في حديث المرأة عقدت حاجبيها وهي تسأل:

– مش فاهمة؟ تقصدي إيه؟

وموضحة لمقصدها تابعت إشراق وهي تلوح بكفيها في الفراغ:

– لو واحد فيهم رافض المكان اللي إنتي عايزاه يفضل قدامك فيه؟ تخيلي شعورك كأم وقتها وحاولي تعرفيهولي بكلمة واحدة مش أكتر.

بغير تفكير أسرعت وداد تجاوبها:

– مش عارفة أتخيل، بس أكيد شعور مش مريح بالمرة، قلق يمكن، خوف، أو...

قطعت عبارتها للحظة تبحث عن تعبير مناسب سبقتها السيدة إليه وهي تصرح:

– أو موت.

نطقت بالكلمة في اقتضاب قبل أن تلتفت نحوها مكملة:

– عرفتي دلوقتي بقى إنتي عملتيلي إيه؟ ولا حاجة زيادة عن إنك سرقتي مني ابني الوحيد، بس كده، شفتي بقى اللي عملتيه سهل إزاي؟

أدركت وداد في تلك اللحظة ما ترمي إليه والدة زوجها فارتفع حاجباها في استنكار وهي تقول مدافعة عن نفسها:

– بس الحكاية عمرها ما كانت أبدًا بالجرم ده.

– أنا وابنك جلال حبينا بعض، قدر واتكتبلي أنا وهو، ليه مصرة إنتي تعاندينا فيه؟ ليه منقبلوش مع بعض كلنا ونعيش سوا على أساسه؟

هزت إشراق هانم كتفيها ببساطة وهي تخبرها:

– أديني قبلته، وأديكوا عايشين معايا إنتوا وعيالكو هنا من سنين، الدور والباقي عليكي إنتي بقى في قبول القدر الجديد، بالظبط زي ما نصحتيني دلوقتي.

لم تستوعب ثانية وداد معنى عبارتها فارتسمت علامات التساؤل فوق وجهها والأخيرة تكمل:

– اطلعي نامي إنتي بقى ومتستنيش جوزك الليلادي، عشان هو بايت عند قدرك الجديد.

وصمتت للحظة قبل أن تكمل بابتسامة كيد:

– مراته التانية.

في البداية اعتقدت أن أذنيها لم تلتقط بوضوح العبارة، اضطربت دقات قلبها وهي تحاول التأكد من صحة ما سمعته، بينما السيدة تتابع بكل هدوء وبحروف واضحة حادة كرؤوس الأسهم:

– أيوه يا وداد، إنتي سمعتي صح، ودانك مخانتكيش ولا حاجة، جلال ابني اتجوز عليكي، خد واحدة زيك بيحبها برضو، والزيادة أن أمه المرادي راضية عنها.

قالتها بتلذذ واضح النبرات، سرى مفعوله السام في جسد وداد الواقفة أمامها، وبكل عنف.

***

كان الذنب شعورًا أطل من نظراته نحوها، وكانت هي بعد انتهاء الحديث دامية كرامتها تشعر بوخزات الماضي في قلبها، من وجهة نظرها البحتة: خانها جلال، لم تر الأمر يومًا كما رآه، ولم تكن الخيانة دافعه، حين تزوج جيهان لم يكن الحب محركًا لقراره، كان زواجًا بمحض اضطرار فرضته عليه الظروف، كفأر اختبار تحت الضغوط وضع بين احترام للحب وإلحاح الآخرين، بات معلقًا يقف على الخيط الفاصل بين رغبته الحقيقية من ناحية، وأن يكون حجر عائق في تحقيق حلم والدته بالمجلس والسلطة التي ستصب حتمًا في مصلحته ومصلحة مستقبل أبنائه من ناحية أخرى.

لم يستسلم بسهولة ولم يتنازل، قاوم حتى الرمق الأخير حتى خارت قواه فسقط، تزوجها بدافع من مصلحة المضطر وإشفاق المخدوع، يعترف بخطئه، لكنه وبكل إصرار ينكر عن نفسه صفة الخيانة.

لست بخائن يا وداد! لقد فعلت ما فعلت وإن بدا بعكس ما سأقول لأحافظ على استمراريتنا، فعلته لأجلك مضطرًا، لأجل طفلينا، فعلته بكل الغباء ولم أكن أعلم حينها سوى مدى حبي الصادق الحقيقي لك ولهما، فعلتها رضوخًا للمصلحة، واستسلامًا لضغط الأقدار.

نفوذ والدها وتوسلات أمه كانا أقوى من أن يفرض أمامهما رغبته، لا ينكر جرم استسلامه، ويعلم أنه مخطئ، لم يسامح نفسه يومًا بعد انفصالهما، لكنه لم يتقبل أبدًا وصم نفسه بوصف الخائن.

لكم تمنى طيلة الوقت أن يعود به الزمن إلى الوراء قليلًا لتصحيح الأمر، لكم تمنى أن تعذره، وأن تنسى، بيد أنه كان يدرك رغم أمنياته صعوبة الأمر.

يذكر طلبها الطلاق منه، ويذكر تنفيذه صاغرًا فاقدًا لكل حجة دفاع عن نفسه، كانا في السيارة القديمة؛ تلك التي امتلكاها معًا وقت أن كانت الأحلام بريئة، جلسا متجاورين وكلاهما في عالم يبعد آلاف الأميال عن الآخر.

يافطة المأذون الشرعي المعلقة على واجهة البناية المقابلة تطل منتظرة كليهما لإنهاء الأمر، وعلى الأريكة الخلفية استقر توأمان لم يتجاوزا السابعة من عمرهما بعد، يتصاعد نحيب أحدهما مغطيًا على

صوت طرقات إبهامه الرتيبة فوق المقود أمامه، بينما الآخر من خلفه يرسم فوق الزجاج المغلق بجواره خطوطًا بأصبعه مراقبًا الأفق.

– تلك هي النهاية إذًا؟

تساءلت عيناه بالأمر، فتسللت من عينيها إليه الإجابة:

– النهاية دي إنت اللي قررتها يا جلال.

هل زال بيننا كل ما يستحق لأجله أن نبقى؟

لقد قطعت بيدك كل شيء يربطنا!

ألا يستحق الحب تضحية أخيرة؟

الحب تضحية لأجل الأشياء، لا بها!

– إنت ضحيت بيا يا جلال.

خرجت من بين شفتيها العبارة بصوت خنقه القهر بالألم المرير كانت تشعر حينها، فلم تلتفت لتوسلاته، ولم تجد بين ثنايا قلبها الموجوع فرصة تمنحه إياها، طلاقهما هو الحل الوحيد، هو الإطار المناسب لصورة كتب القدر عليهما التقاطها... بنظرة حانية أطل على طفليه وتمتم:

– بلاش يا وداد نكمل عالغلط بغلطة أكبر منه، مش إحنا لوحدنا اللي هندفع التمن، بصي شوية لعيالك، قوليلي هما إيه الذنب اللي جنوه؟

أشاحت عنهما نظراتها وهي تقول:

– متحملنيش دلوقتي ذنب اختيار مفكرتش يوم ما اختارته إلا في نفسك، أنا مفيش حاجة هتغير رأيي يا جلال، طلقني.

راصدًا للماضي الكئيب في أعينهما داخل مكتبه مكث إبراهيم على صمته لبرهة قبل أن يتدخل قائلًا:

– وبكدا انفصلتوا وخدتي إنتي شريف وياسين اللي كان عندهم 7 سنين، ساعتها رجعتي بهم لشقة بولاق القديمة.

كانت جملته تقريرية لا تتطلب منها الرد، فقط مالت نحو المنضدة أمامها ملتقطة منديلًا من العلبة التي شارفت على الانتهاء ماسحة به بعض ما أذابته الدموع من كحل أسفل عينيها في حين التفت هو نحو جلال الذي زفر يجاوبه قبل حتى أن يسأل:

– أصعب شيء إنك تفوق فجأة على خسارة مبقاش في إيدك تعويضها، إنك تبقى واقف بتراقب حياتك وهي بتضيع منك قدام عنيك، وعيالك وهما بيكبروا بعيد عنك بسبب غلطة محدش رضي يسامحك عليها، علاقتي بهم بعد كدا اتحددت في إطار زيارات كل فين وفين بتتم، كتير كانوا بيوحشوني ومكانش بيبقى مسموحلي إني أشوفهم، مكانش قدامي حل تاني غير إني أسافر وأسيب كل حاجة هنا في البلد، قلت ده اللي يمكن يخرجني برا اللي أنا عايش فيه: الهروب...

قدمت على شغل في شركة طالبة تخصصي في الكويت، وسافرت أنا وجيهان مش رغبة في بداية جديدة على قد ما كان

غرضي إني أبعد عن ماضي ضيعت كل حاجة فيه.

انتهى من عبارته ملتقطًا سؤالًا آخر أطل من عيني الدكتور إبراهيم نحوه فاستطرد:

– أكيد عايز تعرف أنا ليه مطلقتش جيهان؟! بلاش تسألني السؤال ده عشان مش هتلاقي عندي رد محدد... يجوز خوفي كان هو السبب، ويجوز لأن أي حاجة بعد اللي حصل بالنسبالي مكانتش هتعمل فرق، ولا كانت هتصلح حاجة، متسألش عن دوافع أي شيء عند حد فقد من حياته الهدف، وخسر ثقته حتى في نفسه.

وللمرة الألف تقريبًا بعد رده سكت إبراهيم، منطقيًّا فالاثنان أمامه بحاجة لعلاج نفسي ربما أكثر من ابنهما ذاك الراقد لديه بالداخل، لكنه أهمهم الآن، عمليًّا هو مسؤوليته الوحيدة، لا بد وأن يركز على ذلك.

قطع فترة الصمت المتاحة ليبدأ من جديد:

– أنا آسف لو بضغط عليكو بأسئلتي، بس هفكركوا تاني إحنا بنحاول نستكشف مع بعض التاريخ النفسي لحالة شريف.

كفكفت وداد دموعها بيديها وهي تتمتم أن لا مشكلة بتاتًا، في حين دفن جلال رأسه بين كفيه في صمت ولم يحرك ساكنًا، وأكمل الرجل:

– واضح من النقطة اللي وصلنالها مع بعض دلوقتي أن مدام وداد أصرت على الطلاق، وإن ده تم فعليًا في سن أعتقد إنه

كان مبكر أوي بالنسبة لشريف وأخوه، حصل وهما عندهم كام سنة تقريبًا؟

ردت هي:

– سبع سنين.

حك الدكتور ذقنه بسبابته للحظة مفكرًا وهو يسأل:

– طيب ممكن توضحيلي حضرتك إيه اللي تم بعد كدا؟

دارت بعينيها في المكان بشرود مستعيدة مخيلتها صورًا من الماضي أفصحت عنها:

– اتطلقنا، خدت الولدين معايا، ورجعت البيت القديم.

أومأ برأسه متفهمًا ثم استدرك بسؤال آخر:

– هما اللي اختاروا كده؟ قصدي يعني إنهم يسيبوا بيت أبوهم ويجوا معاكي؟

لم تجبه على الفور، أخذت وقتًا استنشقت فيه من هواء المكان ما يكفيها لتبقى هادئة قبل أن تفصح:

– كانوا صغيرين لسه يا دكتور، بقولك سبع سنين بس، أكيد مكانوش مستوعبين لسه فكرة اتخاذ القرار.

أومأ برأسه أمامها متفهمًا وهو يطرق بظهر القلم بين أصابعه على سطح المكتب في رتابة بدت موترة لهما، وأشبه بدقات عقارب

الثواني في ساعة عملاقة، لم يباشرهما بسؤال جديد، ترك للحظات الارتباك النفسي فرصتها في محاورتهما، كلاهما يقبع منحنيًا أسفل كم من الأوجاع كانت تتزايد وطأة مع تسارع طرقات القلم الذي توقف في النهاية مع سؤاله:

– أستاذة وداد، ممكن تكلميني عنهم شوية؟

رفعت رأسها نحوه تتساءل ما قصده بعين تغيبت للحظات عن الواقع فتمتم:

– شريف وياسين، عايز أعرفهم أكتر.

صدرت منها تنهيدة طويلة في بادئ الأمر، ثم تكلمت.

***

الفصل السادس

«لا شيء مطلق، للحقيقة ذاتها أكثر من وجه»

***

– كنت عيل شقي إنت يا شريف ومصايبك كتير!

انتزعتني جملة الدكتور إبراهيم من الشرود فتنبهت لوجوده، عن شعوري في تلك الساعة التي تلت استفاقتي كنت أفكر، علامة استفهام تحتل المساحة الأكبر من عقلي، عدد من الوجوه الغريبة يحيط بي، أحدهم هذا الغريب الأقرع الذي استقبل عودتي، حاولت مرارًا تذكر اسمه دون جدوى.

لكم تمنيت أن تنطفئ الصورة من حولي ثانية، يقيني المؤكد والوحيد هو أنني لم أرغب حقًّا في العودة، على رأسي غشاوة تمنعني من تمييز الأشياء، كفأر تجارب في قفصه كنت أرقب وجلًا تصرفاتهم، تفاصيل كثيرة، وأصوات متداخلة.

– سيبوه يرتاح يا جماعة شوية.

– مفروض نبلغ دكتور إبراهيم.

فرحين بعودتي ولا أدرك دواعيهم، بجسده الرياضي اقترب

مني أحدهم يساعدني على الاعتدال، يبدو مسؤولًا في هذا المكان، ألقى علي بعضًا من الأسئلة محاولًا قياس مدى استيعابي، ولم أجد لمعظمها إجابة.

اختبر بضغطات بسيطة فيما يشبه العلاج الطبيعي جسدي فتأوهت بوجع تردد صداه في عظامي كلها، بينما هو مستمر فيما يؤديه قائلًا:

– معلش استحمل شوية، عارف أن جسمك واجعك بس استحمل، كل ده طبيعي انت لسه طالع من حادثة وعضلاتك بقالها أيام مبذتلش مجهود، واحدة واحدة الألم والتشتت الذهني ده كله هيروح.

عن أي حادثة يتكلم؟

لا أذكر غير احتفال لاستقبال الموت ولم يكتمل.

غيمة تحيط بعقلي وتفكيري وتفصلني عن كل ما يحيط باستثناء الألم الذي أشعر به، سمعت صوت ذلك الذي تواجد معنا برغم رحيل آخرين؛ يفترش أرضية المكان بالقرب منا وبلكنة فضولية يسأل ذات سؤالي:

– حادثة إيه دي يا كابتن؟

أشار له الأخير بالصمت قائلًا:

– اسكت يا زفت، إنت ملكش دعوة، وبعدين إنت إيه اللي مقعدك هنا؟ اطلع يلا كمل التنضيف اللي وراك.

لوح الفتى عسلية –نعم، أعتقد بأنه اسمه– بذراعيه في سرعة وهو يقول:

– لا ما أنا خلصته الحمد لله، مسحت الحمامات كلها ورتبت الأوض.

رمقه الأخير بنظرة متشككة ثم قال:

– طيب، روح اغسل مواعين الغدا في المطبخ على ما أخلص اللي أنا بعمله، عايز أجي وراك ألاقي الحاجة بتبرق.

صمت الفتى وقد بدا على وجهه الضيق قبل أن يسأل مشيرًا نحوي في محاولة منه للمماطلة في تنفيذ الأمر:

– هو اسمه إيه صحيح؟ أصل من ساعة ما فاق وأنا بسأله ومش عارف أطلع منه برد.

جاوبه باقتضاب وهو يحرك ركبتي متممًا على مرور الدم خلالهما:

– روح يا عسلية اعمل اللي قلتلك عليه، ملكش دعوة إنت بحاجة.

لم يسرع الأخير بتنفيذ الأمر فاحتد عليه الرجل إلى جواري مكررًا بلهجة آمرة:

– هتروح تعمل المطبخ زي ما قلتلك وللا أخليك تعيد نضافة عالمكان كله تاني؟

هب الأخير واقفًا ليتدارك الأمر وهو يقول:

– لا، خلاص هروح، بلاش تهور الله يرضى عنك.

شبح ابتسامة لاح على وجه محدثه وهو يلوح له:

– طب روح يلا يا زفت... بسرعة.

هز رأسه واندفع إلى خارج المكان قبل أن يتوقف محاولًا استغلال ابتسامة المشرف بشيء من رجاء:

– مفيش سيجارة تشجيع طب يا كابتن؟

قالها ثم عدا خارجًا مع صيحته التهديدية:

– عسلية، اختفي من قدامي فورًا، يلا!

بات المكان خاليًا بعد رحيله باستثنائي أنا والمشرف الذي مد يده متحسسًا حرارتي ثم قال محدثًا نفسه:

– عمال تصب إنت فعرق من كل حتة.

قالها وهو يفتح أزرار قميصي سامحًا لمزيد من الهواء بلفح جسدي قبل أن يتوقف لحظة مشيرًا إلى أثر احتراق قديم فوق صدري احتل الجزء الأعلى منه وهو يتساءل:

– دي ايه البلاوي اللي في جسمك دي كلها؟ قديمة العلامة دي وللا برضو من الحادثة؟

أربكتني أسئلته مرة أخرى وأنا أبحث لها عن إجابات محاولًا إمالة رأسي لوضع يسمح لي برؤية الحرق، أحاول التذكر، فلربما تسلل عبر

وعيي أي شيء... عجيب كان هذا الشعور، أن تجهل في لحظة عن نفسك ما يعرفه آخرون، هذا ما كان الوضع عليه لحظتها.

من داخل المكتب الذي أقبع فيه الآن أمام رجل يحكي لي عني؛ كان مستمرًا في سرده الدكتور إبراهيم، ما زال يصفني بأعينهم بعد عبارته التقريرية في بادئ الأمر استطرد:

– اللي وضحلي من كلامها إنك من صغرك شخص رافض للمألوف، عنيد، اندفاعي، بتحب تجرب حتى وانت مش عارف حسابات التجربة دي ممكن توصلك لإيه.

تداركت ابتسامة إشفاق انحسرت فوق شفتي قبل أن ترسم، وانهمكت في مواصلة الاستماع إليه بمنتهى التركيز.

***

بشيء من الألم تأوه ياسين الطفل ابن الثمانية أعوام وهو يستقبل قطعة ثلج كبيرة ضغطت بها فوق صدره وداد التي بدا على وجهها المحمر انفعال رهيب خالطته بقايا الدخان المتكاثف من حولهم والذي وجد لنفسه مآلا عبر النوافذ المفتوحة للخروج.

كانت الشقة تعج برائحته الخانقة التي تبدد معظمها، وبكم من الجيران الذين هرعوا إلى المكان فور رؤية ألسنة اللهب وسماع صيحاتها، وفي ركن بعيد وقف شريف مرتعشًا يستند إلى إحدى الأركان ويترقب كاتمًا أنفاسه يتمنى أن لا تقع عيناها عليه.

في ثورة عبرت عنها نبرتها مع صدرها الذي اتخذ ارتفاعه وهبوطه

سرعة أعلى من الطبيعية صرخت تناديه:

– شريف!

ربتت إحدى الجارات على كتفها مهدئة، بينما الصغير الخائف يقاوم رغبة داخلية عارمة في بل سرواله وهو يحاول النفاذ بجسده عبر جدران الحائط التي انطلت أغلب أركانه بلون فحمي، كان غضبها أكبر من أن يتم احتواؤه، هي أم شهدت من لحظات واقعة كانت أكبر من أن تتحملها: نيران تصاعدت فجأة من داخل حجرة الطفلين يتبعها دخان كثيف، لوهلة لا ترحم عاودها شعور الفقد من جديد، وبرغم خطورة الأمر اقتحمت عليهما الغرفة محتمية بصرخاتها الملتاعة، كارثة كانت، نجا منها الجميع بأعجوبة، لكن قلبها لا يسعه استيعاب المشهد حتى الآن.

مرة أخرى كررت نداءها الصارخ له:

– محدش يحاول يهديني، تعالى هنا يا شريف؛ بقولك.

بأقدامه المرتعدة اقترب الفتى منها لتنقذه يد حسن التي امتدت جاذبة إياه وصاحبها يتمتم:

– خلاص يا بت عمي، خلاص محصلش حاجة، مفيش داعي نخوف الولد أكتر من كدا.

أجابته مواصلة صياحها وهي تهب من مقعدها نحو الأخير:

– هو إيه اللي محصلش حاجة؟ الأوضة كلها ولعت وهو وأخوه كانوا هيروحوا وتقولي إنت بلاش نخوفه؟

ثم امتدت يداها تحاول انتشال الفتى الذي تشبث بالرجل قائلة في عصبية:

– إيه اللي إنت عملته ده؟ هه؟ قوللي مين قاللك تلعب بالنار؟

كرر عليها حسن كلماته وهو يتراجع مبتعدًا بالفتى عنها:

– يا ستي قلنا إهدي شوية، الولد صغير مش كدا.

ارتفع في تلك اللحظة تأوه آخر من بين شفتي ياسين، فالتفتت هي بنظرها نحوه قبل أن تعض شفتيها في غيظ وهي تردد محدثة الصغير:

– كلمني هنا ورد عليا، جبت الولاعة دي منين؟

مرتجفًا بصوته الخافت همس:

– من المطبخ.

ارتفعت يداها لتهبط فوق وجهه بصفعة ساعده حسن على تحاشيها، فانفجر في البكاء دفعة واحدة بينما ذلك الأخير يفصل بينها وبينه وهو يقول:

– الله الله الله، مش هينفع كدا يا وداد، بالله عليكي لا تقعدي إنتي وسيبيني أنا هتكلم معاه.

ثم اتجه خارجًا معه الفتى عابرًا من بين جرادل المياه الملقية أرضًا هنا وهناك قبل أن يشير لإحدى الموجودات في المكان:

– حاولي تهديها شوية يا ست اعتماد، وافتحوا باقي شبابيك

المكان عشان ريحة الدخان لسه زاعقة.

هزت له المرأة رأسها بينما تبعته وداد ببصرها وهو يتجه مع صغيرها نحو الخارج ليتخذ مجلسًا أمام الباب بجواره على إحدى عتبات السلم... شعر شريف على الرغم من صغره بامتنان نحو حسن؛ منقذه الذي انتشله من براثن غضبها الهادر... سأله الرجل بعد هينة من الصمت بنبرة هادئة وهو يربت على ظهره مهدئًا:

– قوللي بقى يا شريف، إيه اللي إنت عملته بالضبط؟

انبعث زفير الفتى مع انتحابه ثم أجاب بصوت باك متقطع:

– مـ... معرفش، أنا كـ.. كنت بلعب بالو... لاعة... بتاعت ما... ما اللي بتشيلها في المطبخ، وياسين كان نايم في الأوضة، النار هيا اللي مسكت في الملاية فجأة وعملت كده، أنا معملتش حاجة يا عمو والله، والله ما عملت حاجة.

قالها ثم انهار مرة أخرى في البكاء أمام حسن، فأحاطه الأخير بذراعيه يحتضنه ويكفكف عن وجنتيه الدموع بكم قميصه مغمغمًا:

– خلاص، إهدى طيب، إهدى مفيش راجل بيعيط.

ظل على وضعه هذا قليلًا حتى شعر بأنفاسه تهدأ، فأعاد رأسه للوراء ناظرًا في عينيه وهو يقول:

– طب إنت مش عارف يا حبيبي إن اللي إنت عملته ده خطر؟ ماما مش قاصدة تخوفك، ماما بس خافت عليك إنت وياسين لتتأذوا.

تمتم الفتى بنفس النبرة المتهدجة:

– أنا كمان يا عمو برضو كنت خايف، ومعرفش هو حصل كدا إزاي.

ابتسم له حسن وهو يربت على ظهره ثانية قائلًا له:

– النار يا شريف يا حبيبي، النار مش لعبة، في لحظة المكان ده كله كان ممكن يولع ومحدش يعرف يلحقكم.

اتسعت عينا الفتى في ذعر وهو يسأل:

– يعني أنا كنت ممكن أموت؟

شاركه حسن اهتمامه بنظرة عين متسعة ليضفي على الأمر أهمية وهو يقول:

– طبعًا، إنت وياسين وماما كمان، كان ممكن النار بعد الشر تمسك فيكوا كلكوا وتحرقكوا زي ما حرقت الحيطة والملايات كدا، إنت تحب ده يحصل يا شريف؟

بدا الذعر في عين الفتى مع تخيله للوضع وتمتم:

– لأ، أنا والله بحب ماما وياسين.

لكزه حسن في صدره مازحًا مع قوله:

– ماما وياسين بس يا ندل؟ طب وعمك حسن اللي بيخليك تلعب بالكورة مع صحابك قدام الورشة بتاعته تحت؟ إيه؟

ملوش نصيب مالحب ده؟

أخفض الفتى عينيه خجلًا وهو يرد:

– لا بحبك والله، وبحب كمان بابا عشان بيجيبلنا لعب معاه وهدوم جديدة وهو جي من السفر.

كانت كلمات بريئة خرجت من بين شفتي الصغير، لكنها بدت أشبه بلطمة تلقاها حسن في مشاعره فكتمها للحظة قبل أن يحمله على النهوض مانحًا إياه تربيتة أخيرة وقبلة فوق وجنته:

– يلا طيب، روح بقى ادخل اعتذر لماما واوعدها إنك مش هتعمل كدا تاني.

أمسك شريف بيديه قائلًا:

– طب تعالى إنت معايا عشان متضربنيش.

– لا خلاص أنا مش هضربك.

أتاهم صوتها من خلفهما وهي تقف على عتبة باب الشقة، فالتفت كلاهما نحوه، عاودها الهدوء، وباتت أنفاسها منتظمة هادئة برغم الدمعات التي جفت تحت عينيها، تحسست رأس شريف في حنان وهي تحادث الآخر:

– أنا آسفة على العصبية يا حسن، بس المنظر أصله كـ..

منعها من استكمال العبارة وهو يشير لها بقوله:

– طبيعي يا وداد، أنا مقدر أكيد فمتعتذريش.

انسلت يداها من فوق رأس الصغير إلى أذنه لتقرصها برفق قائلة:

– بس إنت إياك بقى تعمل كدا تاني وللا تلعب في حاجة من الحاجات بتاعة الكبار.

هز شريف رأسه متفهمًا في حين تنهد حسن وهو ينهض ليقف أمامها قبل أن يقول:

– حصل خير الحمد لله، جات سليمة.

ثم أطل برأسه إلى داخل المكان متسائلًا:

– ياسين أحسن دلوقتي؟

أمالت رأسها أمامه واضعة كفها في وضع مواز لهذا الميل مفصحة:

– نام شوية، هخلي اعتماد تاخده عندها الساعتين الجايين دول بس لحد ما الريحة دي تهدى عشان صدره ميتعبش وهو نايم.

سألها مرة أخرى:

– طب، إنتي دلوقتي مش هتحتاجي مني حاجة؟ تيجي تقعدي إنتي وشريف معايا تحت في الهوا قدام الورشة عشان الريحة دي غلط برضو عليكم؟

هزت رأسها بهدوء معتذرة:

– خد معاك شريف شوية بعيد فعلًا، أنا لازم أرتب الدنيا اللي اتهدلت دي وأشوف بقى كم الخساير اللي حصلت.

تواردت على عقله ألف جملة وجملة قبل أن يتمتم:

– تمام، بس لو يعني احتجتي مني حاجة برضو قوليلي، أنا تحت.

قالها مرتبكًا وهو يسحب الفتى نحوه أمامها فرشقته عيناها بنظرة امتنان... لكم تمنى قولًا غير الذي قاله، لكم تمنى احتضانها في تلك اللحظة مفصحًا لها عن فيض ما يكن لها من مشاعر، لكم تاق لمجرد لمسة من يدها في سلام عابر تلقائي، ولكنه لم يفعل، قالها مكتفيًا بعينيه اللاتي تفضحانه كالعادة، ولا أكثر من ذلك.

***

امرأة وحيدة كانت، تتحمل وحدها عناء الاعتناء بصغيرين في بداية العمر، يزورهم كل عام في أجازته القصيرة طليقها محملًا بالهدايا، كان يعود حاملًا لها معه الماضي، وشعورا بألم لم يفارقها.

أمامها الآن يجلس هو مستمعًا لما تحكي، ومن خلف مكتبه الدكتور إبراهيم ينصت متابعًا تسجيل نقاطه الهامة فوق الورق... سنوات على هذا الحال، فترة ليست بالقصيرة حتمًا، فترة بإمكانها تغيير الكثير.

– الله يكون في عونك يا أستاذة وداد، تربية ولدين لوحدك في السن ده أكيد مكانتش حاجة سهلة.

قالها الدكتور إبراهيم محاولًا سحب الحوار لمنحىً آخر قبل أن

يستفسر:

– واضح أن شريف كان من صغره نشيط زيادة عن أخوه الله يرحمه، يعني حركته أكتر أو (مهيبر) زي ما بيقولوا.

تدخل جلال موضحًا:

– بالعكس يا دكتور، شريف صحيح يبان كدا، لكن الحقيقة إنه كان انطوائي ومنعزل أكتر من اللازم.

عقدت هي حاجبيها في احتداد عليه وهي تقول:

– لا والله؟ وإنت حسيت ده منين بقى إن شاء الله؟

رمقها بنظرة جانبية قبل أن يزفر معاودًا صمته، فاستحثه إبراهيم على المتابعة بقوله:

– اتفضل يا أستاذ جلال، أنا سامعك، كمل وجهة نظرك، حكمت على شريف منين إنه انطوائي برغم إنك فعلًا انفصلت عنهم وقت طويل ومكنتش بتشوفهم غير على فترات متباعدة طول السنين اللي فاتت زي منا فهمت؟

تجاهل هذه المرة نظراتها الحانقة وأسلوبها وهو يعتدل قائلًا:

– أنا أبوه يا دكتور إبراهيم، حتى لو كنت بعيد عنهم فا أنا أبوه، يعني أكتر حد يقدر يحكم عليه أو يفسر تصرفاته، متنساش كمان إني حضرت أول سبع سنين معاهم، عايشتهم وشفتهم في أوقات زعلهم والفرح، ده غير إنه في السنتين الأخارى دول بعد

ما خلص دراسته الثانوية جالي الكويت عشان يكمل دراسته الجامعية عندي هناك، شريف كان من صغره طفل متميز، حساس لدرجة عالية جدًّا، يمكن أكتر من أخوه ياسين، واللي كان أقرب في طباعه الشخصية مني، يعني من ناحية اهتمامه بنفسه، تفوقه الملحوظ دراسيًّا، لباقته الاجتماعية اللي كانت بتحبب أغلب الناس فيه، حاجات من هذا القبيل.

أشار له إبراهيم بالتروي وهو يسجل فوق الورق معلومة ويتمتم:

– هو شريف سافرلك الكويت؟ مذكرتوليش إنتوا المعلومة دي، جالك إمتى وعلى أي أساس؟

نطقت هي:

– في فترة الجامعة بعد ما خلص ثانوية عامة زي ما قال لحضرتك.

منحها نظرة مهتمة دعاها بها للمتابعة فقالت:

– مكناش لسه وصلنا للنقطة دي، أنا كنت بتكلم وانتوا اللي قاطعتوني.

اعتذر لها عن المقاطعة التي لم يقصدها، فأخذت نفسًا عميقًا ملأت به صدرها ثم تابعت:

– اللي بيقولك إنه عارف عياله ده ناسي إن اللي ربى خير من اللي خلف، ده غير أنو أنا أمهم اللي عاشرتهم أكتر منه بحكم الظروف.

افتتحت حديثها بتلك الجملة الاعتراضية قبل أن تكمل والدكتور إبراهيم يجاهد لمنع تثاؤب صادفه معتدلًا مرة أخرى أمامها وهي تواصل:

– شريف اللي بيقول عليه انطوائي يمكن مبقاش انطوائي غير أما سافر عنده هناك في الكويت، ودا يمكن من شكل العيشة معاه هو ومراته صاحبة الصون والعفاف.

انكشف رغمًا عنها شعورها الأنثوي بالغيرة في الجملة الأخيرة، إلا أنها تجاوزته في سرعة متخذة من استمرارها في الكلام ملاذًا:

– عندي استعداد أحكي لحضرتك مواقف كتير أوي جالي فيها شريف يشاركني أمور تخص حياته وقراراته، ودا بس عشان أعكسلك مفهوم اللي اسمه أبوه عن إنه انطوائي.

لسبب ما لم يدركه أحدهم قطعت جملتها للحظة، وكأن غصة في حلقها وقفت تعاندها في الخروج، احمرت قليلًا مقلتاها، ثم استطردت:

– ياسين هو اللي كان بيفضل أكتر القعاد مع نفسه، مش من منطلق انعزالية على قد ما كنت بحسها تركيز أكتر في مستقبله الدراسي، حتى لما دخلوا ثانوية عامة؛ شريف حب يدخل أدبي في حين إن أخوه فضل القسم العلمي أكتر، هما الاتنين كان بينهم حاجات مشتركة زي حبهم للقراية، بس كل واحد فيهم كان بيقرا في مجال غير التاني، شريف كان موهوم بالروايات والقصص، وياسين كان بيعشق الكتب العلمية المتعلقة بمجال علم النفس.

صمتت ثانية، لحظات الحزن العابرة تغافلها، تقاومها كل حين وآخر بتنهيدات أكملت بعد كل منها:

– كان نفسه يطلع دكتور نفسي زي حضرتك كدا، قالهالي مرة زمان... متسألنيش مين فيهم كان أقرب لقلبي عشان ده سؤال ميتسئلش لأم.

لوح لها رافعًا أحد حاجبيه وهو يقول:

– بس ده سؤال أنا مكنتش هسأله، اطمني، دي حاجة بديهية أكيد.

أومأت برأسها للحظة، ثم تابعت تسرد لحظة من تلك اللحظات التي سجلت نفسها في ذاكرتها، كان عقدٌ قد مر على انفصالهما، سنوات عشرة حاولت تناسي الأمر خلالها محتمية باهتمام صبته كله لصالح ولديها، حاولت تجاوز شعورها بالوحدة معهما.

لم يكن الأمر سهلًا بالنسبة لها وهي امرأة فقدت شعورها بالأمان تجاه كل شيء وشخص حولها سواهما، اكتسبت عصبية لم تكن في طبعها، وقسوة لم تدرك من قبل وجودها فيها. كانت بقدر احتياجها المفرط له تنكر ذلك، ترفضه، حتى في أوقات زياراته المتقطعة لهم بين الحين والآخر كانت تشعر باضطراب شديد. للواقع أحكام نقبلها حتى وإن كنا رافضين، فُرِضَت علينا ولم يعد لنا فيها حق الاختيار.

هل تأثر الولدان بذلك؟ ربما! بادرها التساؤل للمرة الأولى يوم وقفت مصدومة أمام مصارحة شريف لها برغبته في السفر، تلك الصدمة التي أخفتها وراء قناع من الجمود ارتدته وهي تفتعل

الانشغال بمتابعة ما تعرضه شاشة التلفاز الصغير أمامها في صالة الشقة الضيقة قائلة دونما التفات نحوه:

– مش فاهمة يا شريف؟ تقصد إيه بإنك عايز تسافر؟

أجابها ببساطة من اتخذ قراره النهائي:

– إيه اللي إنتي مش فاهماه؟ بقولك عايز أسافر أكمل دراستي الجامعية في الكويت عند بابا، حاسس إن فرصتي في الدراسة هناك هتبقى أحسن من الوضع هنا.

تماسكت لتبدو نبرتها هادئة وهي تسأل:

– وإنت إيه بقى اللي ناقصك هنا؟

هز كتفيه متأففًا وهو يغمغم:

– بغض النظر عن إيه اللي ناقصني، أنا كبرت دلوقتي ودي مرحلة في عمري أعتقد إني مسؤول فيها عن اختياراتي، وبعدين أنا مش شايف إني بقول حاجة غلط، أنا مش مسافر أتغرب لوحدي، وأبويا اللي هيبقى معايا مش حد غريب.

نغزت كلماته مشاعرها كسكين حاد يداعب جرحًا قديمًا في روحها، كانت قسوته التي لم تعرف بأي قدر قصدها في الحديث دافعًا لعنادها الذي ردت عليه به متهكمة:

– دلوقتي بقى أبوك؟ بعد كل السنين دي ولسه مبتعتبروش غريب؟

لم يستخلص من عبارتها غير استنكار حاول أمامه الدفاع عن نفسه وهو يسأل:

– مش هيا دي الحقيقة؟ وللا إنتي عايزانا نشوف بس اللي إنتي شايفاه؟

ثم نظر إلى ياسين شقيقه الجالس جوارهم يشهده:

– ما تقول حاجة يابني إنت، هو أنا في كلامي حاجة غلط؟

مط الأخير شفتيه باحثًا عن إجابة لم يجدها، هو الآخر ما بين إدراكه لأسباب شقيقه وتفهمه لشعورها كان محتارًا، فوجد الصمت حلًا أفضل؛ جاوبهم به قبل أن يعاود الانهماك فيما يفعله برغم نظرة ألقاها نحوه شريف شذرًا وهو يصيح باحتداد فيه:

– تصدق بالله أنا غلطان إني بشهد عيل سلبي زيك.

لم يمنح ياسين جملة شقيقة العصبية اعتبارًا في حين نهضت هي بحركة حادة من وسطهما متجهة إلى حجرتها وهي تهتف:

– اعمل اللي عايز تعمله يا شريف، عايز تسافر لأبوك سافرله، أنا مش همسك فيك، دور بنفسك إنت على مصلحتك وشوف هتلاقيها فين.

لاحقها قبل أن تغلق الباب وراءها هاتفًا:

– زعلانة ليه دلوقتي طيب؟ إحنا مش قاعدين بنتناقش مع بعض؟

أجابته وهي تسحب الباب وراءها في عنف:

– ملكش دعوة بزعلي، اعمل اللي انت شايفه يا شريف، وابقى خلي أبوك ينفعك لما تروحله هناك.

قالتها مختتمة القول بصدى انغلاق الباب على الكذبة، لقد كانت حقًّا غاضبة، ولأقصى الحدود.

***

– متلومنيش أنا، لوم نفسك، لوم مشاعرك اللي كانت أضعف من قرار كان لازم تاخده لما جتلك ألف فرصة لده.

في رأسه كالدوامات دارت كلمات السيدة العجوز مرارًا وهو يحاور خواطره: «**هل أخطأت حقًّا بصمتي؟ هل جانب خوفي وترددي الصواب لأعوام طوال كما صارحتني منذ قليل؟ وهل أنا وحدي الملام أخيرًا برغم كل هذا الأسى؟**».

حفنة من التساؤلات احتشدت في عقله وهو يجلس على مقعد الانتظار في تلك الشرفة المجاورة للباب الذي تقبع وداد منذ ساعات مع طليقها والطبيب خلفه، تطل عيناه السارحتان على قرص الشمس المائل للحمرة أمامه، يمضي في رحلة معتادة للمغيب، صوت مرشات المياه المشتغلة لتوها ينبعث مضيفًا للأصوات في عقله صوتًا جديدًا: «**هل كان من الأفضل مصارحتها؟ هل واتته الفرصة مرارًا وأهملها؟ هل؟**»

يذكر الآن كثيرًا من لمحات الضعف التي صادفته بها عيناها، يذكر

فترة كان فيها رجلًا وحيدًا في نطاق حياتها، رجلًا اكتفى فقط بمكانه القريب، رضي بتلك المسافة التي رسمت له ولم يتجرأ أبدًا على اقتحامها... كتائه بين التراجع والإقدام ظل دومًا يتساءل: أعليه حقًّا الاعتراف بما يجيش في القلب نحوها من مشاعر؟ أعليه الآن كشف حقيقته؟ تساءل كيف ستتجاوب هي مع الأمر؟ كيف ستتقبله؟ ربما لم يسبق له التفكير قبلًا في تلك النقطة، كانت تلك حكايته التي عاشها ولم يكتب لها في خياله يومًا نهاية.

فاردًا أشرعته كان يبحر بلا خريطة أو هدف، فقط لأن البحر استهواه، تحمله الأمواج يومًا خلف آخر وسنة بعد سنة، وتعبر به بعيدًا عن كل الشطآن، ينهل من نظراتها فقط لوجوده الاستمرارية مستزيدًا من وجودها الأمل لروحه.

تلك السيدة العجوز كانت على حق، لماذا رسم لنفسه حدودًا لم يضعها أحدٌ له؟ من أي شيء خاف؟ لعله أخبرها ذات يوم مضى، ولعلها وافقت، ولعل كل شيء حينها لم يكن ليكون كما كان، كانت لديه فرص قبل ارتباطها، وكانت لديه أُخَرٌ بعد الانفصال، لكن خوفه من فقدانها أعماه.

أيا ويل قلوب العاشقين من خوفها، تسكنهم زنازين الصمت، ليقضوا مع التردد فيها أعوامًا لا حصر لها.

تنبه في تلك اللحظة وسط أمواج خواطره إلى ذلك الرجل صاحب الجسد الرياضي الذي اقترب عابرًا من أمامه ملقيًا عليه التحية، فجاوبه بإشارة من يديه مكتفيًا بذلك، ثم تابع اقترابه نحو الباب وطرقه قبل أن يفتحه دالفًا إلى حيث يجلس ثلاثتهم: الطبيب، وداد،

وطليقها.

***

– ووصل أخيرًا شريف.

كانت تلك الجملة أمام الدكتور إبراهيم نطقها أبي، ونقلها لي الأول مواصلًا نسخ ما أفصح به ضمير محدثه، لامسني شعور داخلي بالسعادة كنت قد افتقدته للأبد حين رأيته في المطار أمامي.

– أخبرتك بأني لم أعهد السعادة يومًا بعد انفصالي عنها، أمضيت الأعوام في موت بالكاد أحياه، لكن شيئًا ما حقيقيًّا في نفسي تجلى حين رأيته، انبعث شعور خجول في قلبٍ مكتئبٍ بالفرحة إن كنت تفهم ما أعنيه.

بتعبيرات كانت قريبة من ذلك حاول جلال وصف تلك اللحظة التي جاءه ابنه فيها، وكأنما استعاد لحظتها قبسًا من مشاعر أبوته التي واراها تحت أكوام يأسه والثقة التي انعدمت بداخله منذ طلاقهما، لم يطل في حديثه عن تلك اللقطة، أراد أن يوضح منها فقط جزءًا مهمًّا يعنيه هو قبل أن يتجاوب مع السؤال الذي وجهه إليه إبراهيم:

– الفترة دي بقى اللي عاشها شريف معاك، كانت سنتين تقريبًا مش كده؟

– أقل يا دكتور، سنة بس وكام شهر.

بدا شيء من عدم الاستيعاب على وجه الدكتور إبراهيم فاستمر جلال موضحًا:

– شريف كان جايلي يدرس هناك، قعد موسم دراسي أول سنة، رجع أجازة لمصر في آخره، قبل ما يجي تاني السنة اللي بعدها وميكملش إلا كام شهر، يعني بالتحديد كدا، شريف راجع مصر تقريبًا بقاله شهرين، وأنا اللي رجعته بنفسي أول ما خلص امتحانات الترم الأول في الكلية هناك.

سأله إبراهيم عن السبب:

– وإيه اللي حصل خلاك تعمل كده؟

رمق تلك الجالسة إلى جوارهم صامتة، ثم بنبرة أسى تمتم:

– قصدك تسألني إيه اللي محصلش.

تعالت في تلك اللحظة بعد انتهاء عبارته طرقات ثلاث على باب المكتب انفتح على إثرها ليدلف عبره معتز مساعده بقوامه الرياضي الممشوق متأملًا كليهما قبل أن يتجه نحو إبراهيم منحنيًا بخبر همس به في أذنه، فانفرجت أسارير الرجل لسماعه وتراجع ينظر لمحدثه قائلًا:

– الحمد لله، ده خبر هايل جدًّا يا كابتن.

ثم واجههما مفصحًا:

– مبروك يا جماعة، شريف ابنكوا أخيرًا فاق.

تحفز كلاهما فور سماع الخبر، واندفعت وداد بمزيج جمع ما بين اللهفة والقلق تسأل:

– فاق ازاي يعني؟ وبيتكلم في إيه؟

أجابها الكابتن معتز قائلًا:

– اطمني حضرتك هو بخير ومفيش حاجة تقلق، جسمه بس محتاج مدة على ما يسترد تعافيه، وفي قصور في الاستيعاب، عقله برضو مع الوقت هيتغلب عليه، هو فاق من ساعة تقريبًا، مش فاكر اسمه وكل أسئلته متعلقة بالمكان اللي فاق لقى نفسه فيه، ودا شيء إحنا كنا متوقعينه ومنطقي بالنسبة لواحد طالع من حادثة وقضى أكتر من خمس أيام غايب تقريبًا عن الوعي تحت تأثير المخدر والمسكنات اللي كان بياخدها.

قاطع الدكتور إبراهيم حديثه غير آبه بسؤالها وهو يأمره:

– روح إنت يا كابتن دلوقتي فكله المحاليل اللي كنا معلقينهاله، وخليهم يحضروله لقمة خفيفة ياكلها، خلوا بالكوا أن جسمه في حالة خمول لسه، فا متحاولوش تجهدوه كتير في الكلام، وأنا شوية وهاجي بنفسي أطمن عليه.

هز معتز رأسه مستوعبًا الأوامر كلها، ثم استدار راحلًا قبل أن يغلق الباب المفتوح وراءه ليتراجع إبراهيم في مقعده مسترخيًا يتأمل ملامحهم أمامه باحثًا بلا جدوى عن الأمل المتجدد فيها.

لا تبدو على وجهيهما فرحة حقيقية، تزاحم المشاعر بعضها بداخلهما، بين قلق وفرحة وتربص وترقب وحزن مع كثير من الإرهاق، كثير جدًا.

نظر إلى ساعته التي أشارت عقاربها إلى السادسة وبضع دقائق قبل أن يستطرد:

– واضح يا جماعة إن أكتر من خمس ساعات متواصلين في الجلسة ده شيء مجهد عليكو زيادة، أنا يمكن عشان ده شغلي فمتعود عليه، بس عمومًا إحنا فاضل قدامنا حوالي ربع ساعة على المغرب، خلونا نكمل لحد الأدان، وبعدها هناخد استراحة تشموا فيها نفسكو وأروح أنا بالمرة أصلي وأعدي أطمن على شريف في الديتوكس بنفسي عشان تبقوا متطمنين أكتر، اتفقنا؟

لم يجبه أحدهما، فقط تبادلا نظرات تنم عن الموافقة بعد عبارته، كلاهما بحاجة للراحة، وكلاهما تفضحه عيناه.

***

الفصل السابع

«صدق قلبك فقط، فكل ما سواه مزيف»

***

شيء ما تسلل إلى نبرة الدكتور إبراهيم وهو يسرد على مسامعي هذا الجزء من روايته، شيء ربما كان تعاطفًا تنامى داخليًّا فيه من صدق راويها: أبي، ذلك البائس برغم ما يملك، صاحب الذنب الذي قرر تعذيبه حتى آخر العمر، لم يمس على حاله من يوم الانفصال، شيء مهم في روحه انتُقِص، يذكر إبراهيم كلماته جيدًا، تعبيره عن السعادة التي خامرته لحظة المعرفة بأن ابنه سيجيئ، عرَّفها باستعادة جزءٍ من حياته.

– لحظة ما لمحته في ساحة المنتظرين جوة المطار حسيت أن لحياتي قيمة.

كان فرحًا كطفل صغير أعادوا إليه لعبة يعشقها، بيد أنها كانت فرحة لم تتح لها الأقدار حق الاستمرار، هكذا عبّر عن شهور تلت ذلك الاستقبال البهيج، حدثه عن شعوره كأب كان يلحظ يومًا بعد يوم ذلك التغيير الذي طرأ على ابنه، عن تفاصيل عدة في تصرفاته المؤرقة: سهره الطويل الدائم في حجرته، عصبيته الملحوظة، تأخيره

المستمر، عزلته التي باتت جزءًا لا يتجزأ من شخصيته والتي لم يحاول هو أن يقتحمها؛ موعزًا أسبابها لتلك الفترة التي ابتعد عنهم فيها وأضحى في نطاق حياتهم فعليًّا لا وجود له.

بكلمات لخصت أفكاره قال:

– أنا أب فشل في إنه يحافظ على ولاده وهما صغيرين يا دكتور، دي الحقيقة اللي كنت بهرب منها بعد انفصالي عن وداد، واللي رجعت تطاردني يوم ما لقيت ابني بيضيع قدامي وهو كبير بعد كام شهر بس من وجوده معايا في الكويت.

لم يحك له بالطبع عن ذاك البرود الذي احتل تفاصيل علاقته بجيهان، وحدي الآن فقط أعرف، كانا كغريبين تحت سقف واحد، تجمعهما جدران منزل لا دفء فيه، هو منكب في عمله هاربًا من اليأس واحتشاد الخيبات على رأسه، وهي لا تعنيها غير حفلاتها وسهراتها التي لا تنتهي.

كان المشهد أمامي يُسرد مضافًا له من عقلي تفاصيل ترسمه عن ليلة لم ينسها أبدًا، تلكم ليلة انكشاف الحقيقة، الصورة واضحة، لا كد بالنسبة لي في تخيلها.

أمامه –في مواجهة مرآة تمحو قبالتها بقايا المساحيق التجميلية عن وجهها– جلست يراها وهي تنزع من فوق جفنيها تلك الرموش الصناعية، ويراقب خلعها لعدسات عينيها اللاصقة مولية له ظهرها، لا تعير لهمومه –كعادتها مؤخرًا– أدنى اهتمام، صادفته عبر المرآة إلى جوارها ملامحه، فتأمل شكله الذي غيره الزمن، ذاك البريق المثابر في

عينيه متى انطفأ؟ متى أمسى ككم مهمل لا يأبه بوجوده أحد؟

دقائق على عودته المنزل قد مضت، لم ينبس خلالها ببنت شفة، قطعت خيط سكوته بسؤالها حين لاحظت وجوده وهي تتحسس تجاعيدًا وليدة على رقبتها:

– إنت هنا بقالك كتير؟

هز لها رأسه بنعم، فسألته راغبة في ملء فراغات الصمت:

– مالك؟ ساكت يعني وشكلك بتفكر في حاجة.

تمتم بصوت خافت يجيبها:

– مفيش، دماغي مشغولة حبتين.

لم تلتفت، على نفس وضعها الذي اتخذته أمام المرآة استفسرت:

– مشاكل عندك في الشغل برضو؟

همس:

– في كل حاجة.

واثق أنها لم تسمعه، ومع ذلك فهي لم تسأله التكرار، مط شفتيه في ضيق من الأمر قبل أن يتجاوزه بحكم العادة متسائلًا:

– شريف في أوضته؟

هزت كتفيها معلنة عن جهلها بالأمر، ثم استدارت نحوه مشيرة

إلى جزء ما أسفل ذقنها قائلة:

– جلال بص كدا، الحباية دي باينة أوي في وشي؟

أمام رد فعلها اللامبالي زفر فقط قبل أن يجاوبها في سرعة:

– مفيش حاجة باينة.

ثم اتخذ قراره بالرحيل فخطا متجهًا إلى الخارج وهو يقول:

– هروح أبص على شريف.

لم يتلق منها جوابًا غير الصمت، لمحها فقط تشير بيديها له أن كما تشاء مواصلة تفحص بشرتها، خرج من الغرفة وأغلق بابها في هدوء خلفه، أطل على الساعة في يده التي أشارت عقاربها إلى ما بعد منتصف الليل، ثم مشى عبر الردهة الخالية إلا من بعض لوحات زيتية زينت جدرانها وسجادة أصفهانية الصنع لم يلحظ وجودها قبلًا.

لا بد وأنها ابتاعتها مؤخرًا كما ابتاعت عديدًا من الأنتيكات قبلًا بغير علمه، كانت تهوى اقتناء كل ما هو ثمين حتى وإن انتفى لديها سبب اقتنائه، لعلها اعتبرته بشخصه أحد تلك المقتنيات.

وصل إلى الحجرة المنشودة فطرق بابها وانتظر، فلم يجبه أحد، أعاد الكرة ثانية قبل أن تمتد يداه لتفتح الباب متأملًا سكون الغرفة الخالية أمامه: لم يعد فتاه بعد، برغم تأخر الوقت وخلو الشوارع تقريبًا من المارة لم يعد.

خامره القلق –كما وصف لإبراهيم– وانقبض قلبه على خيالات

معظمها يخيف، التقط هاتفه وحاول الاتصال لأكثر من مرة بلا جدوى: لا إجابة، لم يلق قبسًا من أمان يطفئ جذوة النار التي استعرت بداخله.

– يا ترى إنت فين يا شريف؟ وإيه اللي أخرك أوي كده؟

ترددت التساؤلات في عقله وهو يعاود الاتجاه إلى غرفته منتويًا مشاركة جيهان قلقه قبل أن يثنيه الفتور، لن تكون بحال من الأحوال أكثر اهتمامًا بابنه منه، كما أنها لا تزال بكل تأكيد منشغلة كالعادة مع علب المكياج، أو بمكالماتها الخاصة التي لم يشغل باله يومًا بتفاصيلها.

لحاله وحيدًا قرر الانتظار في ركن خافت الإضاءة من الصالة في نهاية الأمر آل مآله، يجلس وبين يديه فنجان قهوة مر بلا وجه أعده ليغالب به النعاس... لعمري كان فاشلًا في إعداد الأشياء حتى قهوته تلك التي انتهت قبل انتهاء قلقه.

مرت ساعات عليه وهو على حاله، ساعات لم تأته فيها محاولات اتصاله إلا برنين مستمر تعلقت بنهايته الخيبة... التهمته الظنون، وتزاحمت في رأسه أكثر الاحتمالات بشاعة، لون الشفق يصبغ السماء بالخارج وابنه ما زال غائبًا في هذا البلد الغريب.

– ترى أين هو الآن؟ أين؟

تنبهت مسامعه في تلك اللحظة إلى صوت الأقدام المقتربة من خلف باب الشقة، ثم ذلك المفتاح المندس في فتحته المخصصة قبل أن يُدَار ليصدر تكة الانفتاح، ذلك المتسلل كلصٍ رآه، شريف، يعيد إغلاق الباب وراءه و...

– كنت فين يا شريف؟

صدح المكان بعبارته الغاضبة بغتة وهو يمد يده نحو زر الإضاءة بالمكان ليشعله، وليته لم يفعل، تمامًا كما قال، وكما ذكر على لسانه إبراهيم:

– يا ريتني ساعتها ما كنت استنيته، ولا شفته بالمنظر اللي كان راجع بيه، اللي شفته قدامي ساعتها مكانش شريف ابني اللي أنا عارفه، شكله مكانش طبيعي، كان تايه، فاجأه وجودي فوقف أمامي يترنح. متسمرة ملامحه وبصره شاخص على وجهي الغاضب وصيحتي التي اكتالت من فيض عصبية تكتنفني: «كنت فين؟ ومع مين؟ انطق! لو فاكر إنك جيت الكويت هنا عشان تقضيها من غير رقيب تبقى غلطان، حتى الحرية لو مش فاهم ليها شروط».

تمنح الحرية لأي شخص بقدر احترامه لها، وهذا الكائن أمامه حينها يبدو غير أهلٍ لأقل القليل منها بتلك الزرقة أسفل عينيه، وصمته المريب... تابع واصفًا:

– قربت منه، شديته جامد من دراعه لدرجة إنه كان هيقع قدامي فعلًا، أول مرة يومها ألاحظ أن جسمه ضعيف بشكل مبالغ فيه...

سألته تاني: «يا بني ما تنطق؟ كنت فين كل ده؟ فجاوبني بلسان ثقيل ونبرات متقطعة: «كنـ..ـت بـ...ذا...كر عند ناس أصـ.. حابي. والـ..وقت بـ...».

مهتميتش برده، كان واضح أوي إنه بيكدب عليا، بس اللي شد انتباهي ساعتها ريحة نَفَسُه، دي اللي عرفت منها الحقيقة، وفهمت هو ليه من الأول مكانش عايز يتكلم.

– أدمنت الكحوليات لفترة كبيرة إنت يا شريف؟ وللا كانت بالنسبالك مجرد سلم للمادة العالية؟

قطع الدكتور إبراهيم الحكاية بسؤاله قاطعًا عني تسلسل المشهد، نظرت إليه، تعيق لحظة الشرود إجابتي في حين تدخل عسلية بلكنة ضاحكة:

– إيه الكلام السلبي ده يا دكتور؟ إنت كدا بتوقعله خطوة أولى.

منحه الرجل ابتسامة جانبية وإن ظلت عيناه معلقة بي باحثًا عن سر ربما كنت أخفيه ولم يحن وقت بيانه بعد، لم أتحاشى نظراته، كنت أطل خلالها على بقية قصتي التي لم تكتمل لدي تفاصيلها، تحاشيت فقط سؤاله بتمتمتي:

– متهيألي المغرب أدن ساعتها عليكم، ووقفتوا الجلسة عشان تيجيلي حضرتك بقى الديتوكس وتشوفني، صح كدا؟

تراجع في مقعده أمامي مومئًا برأسه قبل أن يسحب من الهواء لصدره نفسًا عميقًا، ربما لم يدرك تهربي من الرد، وربما لم يجد لديه حينها رغبة للإغداق وراء تفاصيل جانبية لن تغذي الآن سوى فضوله.

سحب من الهواء نفسًا عميقًا آخر، ثم عاود حديثه من جديد.

***

سيخبرها اليوم بكل شيء... قرار انتصف المسافة بين التردد والإقدام سيطر على رأس حسن الجالس في ذات مكانه تفصله عن الباب المغلق خطوات، وبفرع من شجرة التوت انتزعه أخذ يفصل الأوراق عنه واحدة تلو أخرى محاولًا إمالة كفة إحدى الحيرتين، متوترا كتلميذ في انتظار نتيجته تعبث به الاحتمالات، ولا يجد مهربًا من التفكير.

لم ينتزعه صوت أذان المغرب الذي ارتفع قدر ما انتزعه صرير الباب المنفتح بعد تمامه بلحظات كاشفًا عن وجه الدكتور إبراهيم الذي عبر خلاله ومن ورائه جلال، هذا الذي تسيد الوجوم وجهه وتملكت من خطواته الهموم، خرج من الحجرة بدوره خلف الرجل مستغلًا فاصل الراحة الذي منحهما إياه.

مشى غير منتبه لذاك الذي نهض عن كرسيه متأهبًا أمام خروجهما مستندًا إلى سور الشرفة الخارجية يرقب عبوره أمامه كالمغيب متخطيًا أمر وجوده ليهبط الدرجات الأربعة القصيرة في اتجاه بوابة المكان التي التقطته على عتبتها عينا والدته فهتفت بلهفة من داخل السيارة محدثة نعيم:

– ده جلال طلع أهو.

استفاق السائق إثر هتافها من غفوته، فرفع رأسه عن إطار المقود متطلعًا إلى حيث تشير، لم تنتظر منه ردًّا وهي تفتح الباب المجاور لها مشيرة لفتاها الكبير:

– جلال، خير يا حبيبي طمني، عملت إيه؟

قابلها بالصمت ردًّا وهو يقترب تجاههم كمعتقل حجبت عنه الحياة لعقود، بدا مهمومًا معبأً بأكثر مما يسع، وقرأت هي ذلك في عينيه فاقتربت فاتحة له ذراعيها في دعوة مباشرة لعناق لم يجد بديلًا عن قبوله.

ألقى رأسه على صدرها متمنيًا دفن كل حموله التي شعرت بلفح حرارتها في صدرها من أنفاسه، منحته لحظات من السكون عليها تكفيه، وكفيها يمسحان من فوق ظهره العبء المغلف بإحساس من الكبت متنامٍ فيه، ها هو ذا بين ذراعيها يعود كطفل صغير بلا مأوى في إطار الحصن الذي أرادته له دومًا أن يكون، لم يكبر في نظرها قط، بقي دومًا وسيبقى طفلها المدلل الوحيد، جزءًا مقتطعا من روحها به تكتمل، وله منها كل ما ينميه... بصوتٍ حانٍ تسلل عبر أذنه تمتمت:

– شكلك تعبان؟!

وافقها الرأي بهمسه:

– أوي يا أمي، تعبان أوي.

ثم أزاح رأسه عن صدرها متراجعًا لترصده هي بعينيها وهي تسأل:

– انتوا خلصتوا الجلسة وللا لسه؟

– الدكتور قطع الاجتماع نص ساعة بس نريح شوية وهيرجع يكمل معانا تاني.

قالها بصوت مكدود، وعقل شارد استشعرت هي لمحة ضيق فيه، فترددت بعضًا من الوقت قبل أن تتمتم بسؤالها التالي:

– ياسين وللا شريف اللي جوه؟

خشت الرد برغم فضولها، وعاندته هو غصة في قلبه، فخرج الرد من بين شفتيه ممزوجًا بنحيب وهو يخبرها:

– شريف.

أغمضت عينيها في ألم تحبس دموعًا تجمعت على حافة مقلتيها وخيالها يرسم وجه ياسين حفيدها الذي أدركت لحظتها أنها فقدته، ذلك الهادئ الوديع؛ ترى ابتسامته البريئة أمامها، عبثه، قبلة كان يطبعها على وجنتيها وهو صغير طلبًا لقطعة إضافية من الحلوى. انفلت الوجع منها على هيئة كلمات تمتم بها قلبها المختلج بفعل الذكريات وهي تضمه ثانية لها:

– آاااه يا حبيب قلبي، الله يرحمك يا ياسين، الله يرحمك يا قلب ستك.

دفعها جلال برفق مبتعدًا برأسه عن صدرها، لم يحتمل رأسه المهموم نبضات قلبها الموجوع، سيذيب أحدهما الآخر إن بقيا على وضع كهذا، التقت عيونهما المغرورقة بالدموع، وعلى الحبل الواصل بينهما من الحسرة علقت آلاف الأسئلة اللائمة.

إلى جنب منهما وقف نعيم يراقبهما في صمت منصتًا لسؤال من بين شفتي الأخير خرج بفيض من اللوم لم تنجح السنوات في كتمانه:

– ليه خليتيني أتجوز جيهان يا أمي، ليه ضغطتي عليا لحد ما اضطريت أعمل كدا؟

قطبت حاجبيها أمام سؤاله حد التلاقي وتراجعت يطل من عينيها التساؤل عن سببه موضحة:

– غريب، تيجي تسألني النهار ده عن حاجة فات عليها سنين؟

وأجابها:

– عشان النهار ده بس عرفت إن إنتي اللي قلتيلها، مش زي ما كنت فاكر إنها اكتشفت لوحدها.

قالها دون اكتراث لوقع الكلمات عليها قبل أن يتنهد من فرط الألم مستطردًا:

– وعشان دي الحاجة اللي دمرت حياتي كلها.

***

كان سارحًا إلى جوار أحد مساعديه يداعب بأصابعه بعضًا من خيوط السجادة التي تربع فوقها بعد انتهاء صلاته داخل المصلى الصغير الملحق بالمصحة، تتحرك شفتاه دون صوت بورد من التسابيح اعتاده في حين انتظره بعض الواقفين قبل أن يقترب منه أحدهم مادًّا إليه يده بالتحية وهو يقول:

– السلام عليكم يا دكتور، عامل إيه حضرتك؟

كان محدثه أحد نزلاء المكان الذين أتموا منذ فترة تأهيلهم معظمها، تجرأ من بين زملائه المرتقبين خلفه بإلقاء التحية التي بادله إبراهيم جوابها وهو يعتمد على ذراعه للنهوض قبل أن يواجههم

جميعًا بسؤاله:

– الحمد لله أنا تمام، إزيكوا إنتوا يا شباب؟

انهالت عليه إجاباتهم وهزات رؤوسهم المطمئنة، فعاجلهم بسؤال آخر:

– أخبار التعافي إيه؟ شغالين في البرنامج كويس؟

هتف أحدهم:

– زي الفل يا دكتور، الحمد لله أحسن من الأول.

قالها الفتى قبل أن يجتاز بعضًا من التردد خامره وهو يصرح:

– هو في بس طلب جماعي كدا مش عارفين إذا كان مسموحلنا نقوله وللا لأ.

أمال له إبراهيم رأسه مشجعًا أن أفصح، فتابع:

– كنا عايزين نعمل مكالمات لأهالينا، خاصة يعني إن العيد لسه خلصان وحضرتك عارف إن إحنا هنا بقالنا فترة، فلو بس مكالمة قصيرة لكل واحد يطمن فيها على أخبار الناس برة هتفرق معانا أوي نفسيًّا.

منحه الرجل بنظرته الخبيرة ابتسامة، ثم التفت إلى ذلك المساعد الذي يجاوره قائلًا:

– شوف الموضوع ده يا وليد، اختار أكتر ناس إيجابية عندك

في المكان واعملهم المكالمات الأسرية اللي طالبينها دي.

هز مساعده المشرف على التأهيل بالمكان رأسه ثم قال:

– ماشي يا دكتور بإذن الله، بكرة هقعد بس مع حضرتك وهنشوف مع بعض الأصلح.

قالها ثم أشار لهم بفض الجمع هاتفًا بلهجة آمرة:

– يلا يا رجالة، روحوا جهزوا أوضة الاجتماعات، عندنا "جروب" كمان نص ساعة.

انصاع الجميع لأمره فانصرفوا وهو يتابعهم ببصره في حين تأبط إبراهيم ذراعه ليشاركه الخروج من المكان وهو يسأل:

– أخبار التأهيل إيه يا كابتن؟

رفع الرجل كتفًا وأخفضه وهو يجاوره السير قائلًا:

– الوضع جميل زي ما حضرتك شايف، معنديش حالات مستعصية، بس في نفس الوقت معنديش ما بينهم الألفا اللي أقدر أقولك إني معتمد عليه.

ثم تبع حديثه موضحًا:

– المجموعة كلها تقريبًا في سن المراهقة وخبرتهم مع المرض مش كبيرة، موصلوش حد القاع الإدماني، وبالتالي عندي شك كبير في قوة قرار التبطيل اللي واخدينه.

هز الدكتور إبراهيم رأسه متفهمًا قبل أن يسأل:

– وبالنسبة لشغلك إنت، واصل معاهم لفين؟

رد عليه:

– شغال طبيعي وفي تحسن مبقولش لأ، بنعمل اجتماعاتنا في مواعيدها ومقسملهم الوقت طول اليوم ما بين مشاركة وقرايات، بس برضو أنا واحد قصاد تسعة، ودي دايرة ثقة نطاقها ضيق أوي بالنسبالهم، مش كله هيقدر يستفيد منها، لازم يبقى في مصدر خبرة تاني يوازن العملية.

صمت للحظة قبل أن يتابع:

– بفكر في الواد عسلية المحجوز عند كابتن معتز في الديتوكس، الولد ده برغم الجانب السلبي من تعدد انتكاساته، إلا إنه عنده خبرة كبيرة بالمرض، وأنا شايف صراحة أن وجوده في التأهيل الفترة دي مع متابعة وتحجيم مني هيميل الكفة في صالح تعافي الشباب أكتر.

زي ما بقولك هما محتاجين مصدر تاني للثقة يعايشهم ويقدروا إنهم يستفيدوا منه.

بنظرة جانبية أيد إبراهيم نظريته، ثم أضاف:

– أنا كدا كدا هعدي على معتز دلوقتي هناك، في حالة عنده لسه فايقة عايز أبص عليها، تعالى معايا، وبالمرة نشوف موضوع عسلية ده.

بإيماءة موافقة من رأس الرجل أكملا معًا المسير، سارا سويًّا على الرصيف المحاذي للحديقة في طريقهم للمبنى الصغير الذي قبعت أنا بداخل إحدى حجراته يرافقني الكابتن معتز الذي ما إن رآهم دالفين حتى هب معتدلًا من فوق الفراش إلى جواري مفسحًا لأولهم مساحة اقتراب مني وهو يقول:

– اتفضل يا دكتور.

ثم استطرد مشيرًا نحوي يستكمل حديثًا لم أكن أفهم من فحواه شيئًا بعد:

– جبناله أكل زي ما حضرتك أمرت وخلصه، في صعوبة عنده في البلع بس دي أعتقد هتقل أما يستعيد لياقته مع الوقت.

كنت أتفحصهم بعقل لا يزال مشوَّشًا إلى حد أعجزه عن استيضاح ما أنا بحقٍّ فيه، المساحة الضبابية ما زالت تحتل جزءًا من تركيزي، أشعر بخليط من المشاعر، وتبدو الأشياء من حولي جميعها وكأنها جزء من حلم هادئ يُعْرَض أمامي بالتصوير البطيء.

أشار الدكتور لمحدثه أن جيد وهو يتأمل رقودي في وضع أشبه بالجلوس فوق الفراش أمامه بنظرة متفحصة بادلته أنا الآخر إياها.

– من أنت؟ وأنا ما الذي أفعله حقًّا هنا؟

أسئلة خامرتني وأنا أنظر نحوه لم تنبس بها شفتاي تبددت في سماء الغرفة الرطبة مع اقترابه بيد ربتت فوق كتفي وهو يسأل:

– أهلًا بيك على أرض الواقع يا بطل، طمني، حاسس بإيه

دلوقتي؟

تمتمت وأنا أجاوبه مضطربًا:

– حاسس زي ما تكون ستارة على عقلي مخلياني مش عارف أركز في أي حاجة حواليا.

طمأنني بهزة رأس وهو يقول:

– عادي، شوية وقت بس وهتستوعب كل حاجة.

ثم مد كفه ضاغطًا على ذراعي قبل أن يتساءل:

– حاسس بوجع في عضمك وللا حاجة؟

رددت سؤاله بجوابي:

– شوية، أخف كتير من الأول.

ثم أضفت:

– أنا بس موترني المكان ومش فاهم أنا فين ولا بعمل إيه هنا.

أشار لي بالهدوء موضحًا:

– إنت هنا في مصحة علاجية، والدوشة اللي في دماغك دي كلها طبيعية لأنك كنت في غيبوبة بقالك فترة، فما تفكرش في حاجة، وركز معايا دلوقتي عشان توريني هتعرف تقوم من سريرك وللا لأ.

قالها وهو يعاونني بمساعدة مرافقيه على النهوض، فتأوهت لحظة ملامسة قدمي الأرض ثم تحاملت على نفسي وأكتافهم واقفًا.

أشعر بدوران الأرض من تحت قدمي، لم يكن الأمر بسيطًا كما توقعته، أغمضت عيني للحظة مقاومًا شعور الغثيان الذي اكتنفني حتى هدأ لتتركني أيديهم بشيء من التدريج سيطرت خلاله بالكاد على توازني، فأشار بإبهامه محدثي قائلًا:

– هايل، ما انت زي الفل أهو.

أشرت له بسبابتي التي صنعت بها دائرة في الهواء أمام وجهي وأنا أتمتم:

– في دوخة بس وحاسس إن الأرض بتلف بيا.

تبسم قائلًا:

– الدم دلوقتي هياخد مساره الطبيعي في جسمك والشعور ده هيروح، جرب بس تمشي خطوتين لقدام مع نفسك هتلاقي الدنيا بقت أفضل.

حاولت تحريك قدمي، لكنني استشعرت بعضًا من الألم فتراجعت عن المحاولة قبل الشروع فيها وأنا أقول:

– لأ، الوجع لسه شغال وحاسس إني هقع لو حاولت.

رفع إبراهيم إصبعه يحك به أسفل ذقنه ثم التفت إلى رجليه الواقفين جواره سائلًا بلهجة عملية:

– شايفين إيه؟

بادره وليد بإجابته:

– أنا شايف والرأي النهائي ليكو إنه كفاية عليه كدا ديتوكس، كدا كدا أعراض انساحبه خلاص خلصت، ومتهيألي دلوقتي الأفضل يطلع للتأهيل مع باقي الشباب، أعتقد ده هيساعده على التعافي الذهني بشكل أسرع.

– أطلع معاه أنا كمان يا دكتور؟

صاح بالكلمة من خلفهم عسلية، ذلك الأقرع الذي وقف على عتبة الباب مطلًّا برأسه إلى الداخل فالتفتوا نحوه في حين هم معتز بنهره قائلًا:

– إنت تاني يا زفت؟ أنا مش قايلك تفضل مستنيني في المطبخ؟

رفع الفتى يديه معتذرًا وهو يوضح:

– عملته يا كابتن والله، أنا بس بقول لو ينفع يعني تطلعوني معاه أفيدلي من القعدة هنا، عايز أحضر اجتماعات تأهيل مع الناس.

تبادل كل من الطبيب ووليد نظرةً جانبية صامتة ذات مغزى قبل أن يغمغم لي الأول بسؤاله:

– قابلت الأخ ده قبل كدا؟

كان مقصده واضحًا مع إشارته نحو ذلك الفضولي الذي اقتحم

علينا المكان، والذي عقدت أنا حاجبي في محاولة لذكر اسمه مرة أخرى بينما سارع هو بالتدخل قائلًا:

– قابلني طبعًا، ده أنا أول وش فاق لقاه قدامه.

لم يلتفت الدكتور إبراهيم لكلماته وعيناه ترصدني وتنتظر إجابتي التي تمتمت مترددًا في النهاية بها:

– اسمه عسلية تقريبًا؟

لاحظ جميعهم تباطئي في النطق بها، وبحثت في أعينهم عن مدى صحتها متشككًا في ذاكرتي التي بالكاد تتحسس البيانات وكأنما ولدت لتوها قبل أن يتابع نفس الرجل حديثه معي وهو يقول:

– طب أنا عايز آخد رأيك إنت؟ موافق نطلعه معاك عالتأهيل وللا نخليه قاعد هنا؟

أطل الجميع بنظراتهم بعد السؤال تجاهي، وبصعوبة حاولت أمامهم الاستيعاب.

المعلومات تتسرب ببطء في رأسي كقطرات متقطعة من صنبور منسد، مفكرًا متسائلًا مستغربًا أرمق ابتسامةً رسمت على وجه السائل، ونظرة ترجٍ في عين حليق الرأس ذي الجرح القطعي الغائر الذي وقف عند مدخل الحجرة واضعًا كفًّا فوق صدره أن وافق بالله عليك، وافق.

لوهلة أو أكثر ربما سكتت أبحث الأمر في رأسي جليًّا دون معطيات تكفي سوى إحساسي الفطري تجاهه، لم يكن ذا قسمات تشعرك

أبدًا بالراحة، لكن شيئًا مبدئيًّا لامسني من أسلوبه التلقائي في معاملة الجميع دفع رأسي لإيماءة إيجابٍ بنعم: «**أنا أوافق**».

***

يا كل أعمدة الإنارة، يا كل الأضواء المنبعثة من خلف النوافذ، ويا كل كشافات السيارات العابرة... انطفئي، دعي للظلمة السائدة حقها في امتلاك الأرض... كل الأصوات لتصمت، كل الضحكات لتتبدد، وكل الأشياء لتتلاشى خلف جدار أسود من الوهم، لم يعد حسن يرى بعينيه الدامعتين سواه.

سحابة من الوجع تحلق فوقه، وتقطر على رأسه نزيفًا من أسى صاحبه طوال طريق العودة لمنزله بعد رفضٍ قابَلَت وداد به عرضه، لا يدري أيهما يلعن في نفسه، أذلك الحب الدفين لأعوام بداخله؟ أم تلك اللحظة التي انفتح فيها أمامه باب الافصاح؟ يتساءل كيف فجَّر هكذا بغتة حبًّا مكتومًا؟ وكيف طوى على الوهم لسنواتٍ صدره؟

تبدو الشوارع في عينيه المهمومتين خالية إلا منها برغم الزحام، يراها بديلًا للجميع، ترمقه بأعين المارّين، وتولِهِ مع كل عابرٍ ظهرَها، كم من الوقت حقيقة مر عليه حتى وصل بقلبه الزاحف المكدود إلى مدخل الحارة؟ بنايته القديمة المتهالكة تطل عليه جدرانها الممتلئة بالشقوق في شماتة، وتحتضن في ظلمة مدخلها ساحرته التي رآها بعين الخيال تنتظره فاردةً ذراعيها أن أَقبِل، تمتم باسمها مقتربًا فتلاشت، رآه الجميع يعبر كالمجذوب أمامهم، ويبكي.

لا يجرؤ أحدهم على مقاطعته وسؤاله عما بلاه، تركوه على حاله،

تبتلعه عتمة المدخل ساترة عنهم أحزانه، صعد درجات السلم حتى باب شقته التي فتحها ودخل ملقيًا جسده على أول المقاعد التي قابلته فيها، بصعوبة تمكن من التقاط أنفاسه، فك أزرار قميصه ليس لشيء إلا أملًا في تفريغ ما يحتشد في صدره من آلام.

– هتفضل تحبها لحد إمتى يا حسن؟ فوق، وداد مش ليك، إنساها يا حسن ومتضيعش اللي باقي من العمر، كفاية اللي راح منك، الأحلام مش رهن لرغباتنا يا حسن، الأحلام مرهونة بالقدر وبالظروف.

كلمات غرست نصال حروفها الحادة في قلبه، فسالت الأنات منه وهو يطالع كل ما حوله بوجع... صدى الضحكات الساخرة من كل ركن حوله يتردد من الحوائط، من صور شقيقاته المعلقة في براويزها على الجدران، حتى من ذلك البراد المعدني الصدئ الموضوع أمامه يحوي قليلًا من بقايا الشاي المتجمع في قاعه.

تصدح المفردات جميعها بالشماتة، لماذا لم يفهم؟ لماذا لم يدرك غير الآن حقيقته؟ لماذا لم ينتبه لسنوات عمر ترجته ألا يتركها تضيع، وحين أراد اللحاق بما تبقى دفعته عنها بكل قسوة؟ أغمض عينيه في قوة وسد أذنيه محاولًا الهروب، بيد أن الأصوات تعالت، بعض الهواء المتسلل عبر باب الشقة المفتوح لن يزيل اختناقه حتمًا، يجثم ضيق المكان فوق صدره.

بصعوبة نهض، عبر الباب خارجًا مرة أخرى مهملًا إغلاقه خلفه، وهبط درجات السلم ليستقبل ظهرها مرة أخرى فتخطاه عابرًا من خلاله مبددًا بعضًا من الوهم في رأسه بأمر الألم، هذا الحنق الناعس

في أعماقه أنى له أن يصحو.

يشعر به، ينتظره هناك، أمام باب الورشة الحديدي الجرار المتوج بيافطة تحمل اسمه: (الأسطى حسن، سمكرة وخدمة سيارات)، بقليل متبقٍ من طاقةٍ فيه انحنى يفتح القفل المعلق بالباب ويرفعه، ولبرهة أمام الرفوف الحديدية التي احتشدت فوقها أدواته وقطعه المعدنية المختلفة وقف.

هنا، حيث أمضى العمر كله ينتظرها أن تعود، هنا كان يطل باللهفة عليها كلما جاءت، وبالشوق مع كل رحيل، حبيسًا بمحض إرادته، مقيدًا في قفص حبس نفسه فيه، حمقًا فَعَلَ ففشلَ وضاع.

انهمرت الخواطر على رأسه ملتهبةً تكويه، ليجد نفسه ودون استيعاب لما يفعل يلتقط إحدى تلك الهراوات الحديدية المنتشرة في المكان ويحملها خارجًا تتبعه العيون، وتشهد لحظة وقوفه الأخيرة متأملًا اسمه على اليافطة المعلقة قبل أن يهبط بهرواته عليها في قوة هشمتها وأسقطتها أرضًا أمامه، لتنهال ضرباته بعدها على كل شيء آخر... ضربات حملت قهر الدنيا، وكل الغضب.

***

أنا والدكتور إبراهيم.

لم يكن لقائنا الأول طويلًا في غرفة الحجر الصحي أو كما يطلقون عليها هنا الديتوكس، كان بالكاد لدقائق ثم افترقنا، هو لمتابعة جلسته مع من لم أكن أعرف حينها أنهم أسرتي، وأنا –بصحبة الأقرع عسلية والكابتن وليد– لمكان أيضًا لم أكن أعرفه؛ يُدْعَى التأهيل.

كنت أنا في طريقي أتوكأ متفاعلًا بصعوبة مع أسئلة عسلية المتوالية، بينما هو في دخوله إلى المكتب يبتسم لجليسيه المنتظرين قبل أن يتخذ ذات مقعده أمامهما من جديد، ويشرع في استكمال ما قطعه.

– أهلًا بيكوا مرة تانية، أرجو تكونوا شميتوا نَفَسْكوا شوية في النص ساعة اللي خدناها راحة دي.

افتتح بها حديثه معهما كما أخبرني قاطعًا ما شردت له أفكاري، ها قد عاد ليفتح مرة أخرى ذلك التقرير الطبي الموضوع أمامه ملتقطًا قلمه الخاص قبل أن يتطلع إلى المنضدة الزجاجية الخالية أمامهما إلا من علبة المناديل الورقية متسائلًا:

– جاهزين نكمل كلامنا؟

أومأ له جلال رغم الحزن برأسه في حين صمتت وداد وقد تسيدت الخواطر عقلها، كانت شاردة سارحة في عالم آخر ألقى بها بعيدًا عن كل ما يدور، تشغلها لحظات فاتت، بدأت بصرير باب الحجرة الذي انفتح ليظهر على عتبته حسن...

كان هناك يقف أمامها وكأن انفعالات الدنيا احتشدت بداخله، بينما يقاوم كيانه الخارجي انبثاقها، رفعت عينين من الخواء نحوه، فحاول رسم ابتسامة مرتبكة للقائهما ثم تمتم:

– إزيك يا بت عمي؟ شفت الدكتور خارج وعرفت انكوا واخدين استراحة فقلت أدخل لو ميدايقكيش يعني أطمن عليكي.

نظرت إليه ولم تجبه، فتردد قبل شروعه في الدخول وهو يضيف:

– أروح أجيبلك لقمة تاكليها؟ إنتي على لحم بطنك من الصبح.

هزت له رأسها أن لا، وتنهدت تنهيدة شكر فهم مغزاها فسكت، سكوتا خارجيًّا فقط لم يكن له البتة علاقة بذلك الفيضان الهائج داخله، كان يقاوم رغبة متنامية فيه، حاول التهرب منها ومن فيض أسئلة قلبه الحائر المتردد.

أيخبرها الآن أم يصمت؟ ربما يخسر كل شيء إن فعل، وربما يكسب أيضًا كل شيء، مرة أخرى قاوم اندفاعه متحاملًا على التخوف لتخرج عبر شفتيه الكلمات بصوت ضعيف:

– أنا عارف إنك زعلانة مني، زعلانة عشان محافظتش عالعهد اللي بيني وبينك، حقك يابت عمي، بس أنا عايزك تعذريني.

أشاحت بوجهها عنه فضاق بصمتها وهو يتابع:

– والله ما قلتله حاجة بقصد خيانة ولا غدر، بس أهو ده اللي حصل بقى، عارف إنك حلفتيني مقولش لحد، عارف إن ثقتك فيا كانت أغلى من أني أضيعها، بس أنا بني آدم قصاد مشاعره ضعيف يا وداد، لما جالي الأستاذ جلال لقيت في عنيه خوف حقيقي على ولاده لخبطني، ضميري مطاوعنيش أسيبه موجوع، وف نفس الوقت مكنتش قادر أخلف وعدي معاكي.

عادت ترمقه مرة أخرى بنظرتها الصامتة فزفر مستطردًا يتهكم على نفسه:

– قلت أنا همسك عصايتي من النص، مش هقوله تفاصيل، وكفاية عليه عنوان ومعاد الجلسة، سامحيني، إنتي عارفة إني عبيط زي ما أمي الله يرحمها كت بتقول.

لم يبد عليها أي انفعال في أثناء استماعها له، الحزن نفس الحزن هو ما سيطر عليها، مكملًا هو بضحكة مريرة واصل بها قوله بعد لحظة سكوت أخرى لالتقاط الأنفاس:

– زمان واحنا عيال أما كانت تقولي الكلمة دي قدامكوا كنت أتعصب أوي وأفضل أزعق معاها، لا يامه أنا مش عبيط، إوعاكي تقوليهالي الكلمة دي تاني، الله يرحمها كت تضحك وتقولي العبط يابني ماهوش عيبة، دي وصمة الطيبين في زمنا ده... مرة قالتلي إنت اللي زيك قلبه قلم رصاص، بيفضل جواه الحلو بس، والوحش أوام بيمحيه.

كاتمًا أشجانه في لحظة صمت تفحص خلالها كل تفصيلة من ملامحها فارتسمت على شفتيه ابتسامة شرود غمغم بها:

– عشان كدا أنا عمري ما قدرت أمحيكي.

نطق بها وسط شروده قبل أن يتدارك في عجل نفسه مستدركًا بأول ما جال بخاطره:

– فاكرة يوم ما طلبتي مني أعلمك سواقة عالعجلة الخضرا بتاعتي؟

عقدت حاجبيها رغمًا عنها محاولة التذكر بينما هو بالشجن

الضاحك يكمل:

– يومها وقعتي بيها تحت بيت ستك، فضلتي قبلها تقوليلي إبعد إنت سيبني أنا هعرف، وهما يدوب مترين مشيتهم واتقلبتي، جه جدك آخر اليوم شافك مجروحة، خلاهم ياخدوا مني العجلة ويشحنوها في الصندرة سنة كاملة عشان بس عرضتك للخطر، ساعتها أنا مزعلتش عالعجلة، أنا زعلت عشان مفضلتش جنبك وسيبتك تتجرحي.

نظرت إليه برغم حزنها، كان دومًا ما يذهلها بذلك القلب النقي الذي يحمله، كانت له قدرة عجيبة على جعلها تدرك أن ركنًا ضئيلًا من العالم ما زال بخير، تمتمت تسأله:

– غنت ازاي بتعرف تحافظ عالذكريات بريئة وواضحة جواك أوي كدا؟

وقبل أن تمنحه فرصة الإجابة استطردت:

– عارف؟ في ناس هلكانة تدور في ماضيها عن نقطة نور ومش لاقيين؟

تبسم امتنانًا لكلماتها ثم قال:

– جايز، بس عشان دماغي فاضية شويتين، متمليتش زيك يا وداد بكتب المدارس والكراريس، هي السمكرة الحاجة الوحيدة اللي بعملها من صغري، فيعني أنا إيه اللي هملى بيه دماغي إلا شوية الحديد وجمبيه الذكريات الحلوة دي؟

قالها قبل أن تخفت الابتسامة عن وجهه تدريجيًّا وهو يتمتم:

– المهم أن أمي هيا اللي طلعت في الآخر صح، وطلعت قلبي فعلًا قلم رصاص، كل الوحش اللي فيه ممكن يتمسح.

ثم أطرق برأسه حين عاوده الواقع مغمغمًا:

– معرفتش ده غير وأنا قدام جوزك، كرهته سنين طويلة عشان كان سبب في حرقة قلبي، وفلحظة ما شفته بيبكي مديت إيدي وطبطبت عليه.

لم ينتبه لنفسه وهو يفتح بيديه فوهة البركان على الحمم الملتهبة، ولم تعد له فيما تبقى بعد ذلك قدرة السيطرة على شيء وهو يتابع بغير شعور:

– أنا كرهته عشان سرقك مني يا وداد، وانتي الحاجة الوحيدة اللي فضلت طول عمري أحلم بيها.

انتبه فجأة لكلماته من نظرتها التي حدقت في وجهه بها، لقد فاض بكتمانه الكيل، وانفرط العقد. لم تفاجئها الحقيقة قدر تفاجئها باعترافه. كأي أنثى كانت تفهم منذ أزل شعوره نحوها، رأت الحب كثيرًا في عينيه، صادفته في خوفه عليها، ولاحقها في نظراته، لم تفكر يومًا في مبادلته إياه، وكان الأمر يرضيها على حاله.

لطالما استكانت لصمته واعتمدت عليه، لم تتوقع يومًا أن يصارحها بشيء، وهو أيضًا لم يتوقع في يوم أن تخرج من بين شفتيه مثل تلك الكلمات، لكنه وكأمواج من نبع شلال انهمر فيضه دون

توقف أمام نظراتها المندهشة، انطلق يفيض:

– أيوه يا وداد زي ما سمعتيني، أنا بحبك، بحبك من سنين وعمري ما حبيت إنسية غيرك، بحبك أكتر من أي حاجة في الدنيا.

رباه على ما اكتنفه لحظتها من شعور، كأن كل خلية في جسده تمددت، ولفظت عنها غبار الماضي لتتجدد، شعر بروحه تحلق مقتربة به من كل ما أحب: حضن أمه الدافئ، ضحكات شقيقاته، ورائحة البيت القديم... سألها وكيانه يعج انفعالًا لا وصف له:

– تتجوزيني يا وداد؟

ها قد أفصح، ها قد فتح لها صدره ومنحها المشرط الوحيد القادر على فقء الخراج الثقيل الرابض فوق قلبه منذ عقود، وها قد تناولته هي مرغمة منه، واحتشدت على مقلتيها الدموع، واختنق الرد فوق لسانها، وتنهدت، ثم أخيرًا أجابته:

– مش هينفع يا حسن، أنا آسفة.

أتته إجابتها بعد التنهيدة كوقع ألف جبل فوق أنفاسه، لقد شقت بمشرطها الحاد قلبه لا الصديد، شطرته بحدة وقسوة لم يتخيل في أبشع كوابيسه ليوم أن ينشطر، لن تفارقها أبدًا نظرته: ذلك السقوط الحر الذي رأته لأمله من ارتفاع شاهق، أنين قلبه البائن في عينيه الملتمعتين أمامها، في ارتعاشة يده وشفتيه وهو ينهض دون كلمة أمامها مبتعدًا، لم يعلق بأي شيء، لم يضف سؤلًا حتى، رحل محملًا بذات وجع عايشت هي ذات يوم مثله.

للحظة قاسية تلك التي تأتِي أحدهم فيها مقدمًا له أغلى ما ملكت فيرفضه، هل أشفقت حقًّا عليه؟ أم أنه ذكرها بصدمة عاشتها يوم علمت بأمر خيانة جلال؟

– أستاذة وداد؟ وداد هانم؟

انتزعها الدكتور إبراهيم بنداءاته من خواطرها فجفلت كالملسوعة تنظر نحوه بحدة جعلته يتراجع في جلسته أمامها وهو يقول:

– أنا آسف معلش، بس حضرتك مش معانا في الكلام خالص.

نفضت عنها الأفكار مستعيدة لنفسها بعض الهدوء وهي تقول:

– أنا اللي آسفة يا دكتور، اتفضل حضرتك.

منحها نظرة اشفاق متأنية قبل أن يعتدل متابعًا عمله:

– إحنا عايزينك معانا بس، الباشمهندس جلال كان بيكلمني عن فترة ما قبل انهيار شريف، عزلته اللي زادت، الغموض اللي صاحب كل تصرفاته، سهره وتأخيره لفترات طويلة برة البيت وصولًا لمرحلة اكتشاف مشكلته مع المخدرات.

قالها ثم اعتدل مواجهًا كليهما وهو يسأل:

– بعد ما اكتشفتوا إنه بيتعاطى، ايه هي بقى الإجراءات اللي اتخذتوها معاه؟

أجابه الأخير قائلًا:

– في بداية الموضوع شريف كان بينكر حقيقة المشكلة اللي هو فيها، كان شايف إنه متخطاش مرحلة التجربة لسه، وأنا ساعتها صدقته زي أي أب مش حابب يقتنع إن ابنه فعليًّا مدمن وبينهار.

قطعت أنفاسُه وصْلَ الحديث للحظة قبل معاودته:

– بس مع الوقت لاحظت إن الحكاية بتزداد سوء يوم عن التاني، نتايج امتحاناته بقت غير الأول، المشاكل اللي كتير كانت بتجيلي من عنده في الجامعة، خناقاته، وساعتها أيقنت وجود خطر واجب معالجته.

كان يتكلم وكلاهما منهمك في سماعه وهو يصف فترة صعب عليه تذكرها:

– بدأت أعرضه على بعض الدكاترة الاستشاريين هناك، كتبوله علاجات مختلفة واتكلموا معاه كتير، وهو كان يلتزم أسبوع أو اتنين بالكتير بعدين تفلت منه الأمور تاني.

بعضهم اقترحوا عليا أحجزه في مصحة علاجية بس أنا كنت أضعف من اتخاذ قرار زي ده، فاكتفيت بالنصايح وبمحاولة فرض حصار مكانش كافي عليه.

أيامها طبعًا قريت كتير عن المرض وحاولت أجمع معلومات عنه سواء من الانترنت أو من الدكاترة اللي كنا بنتردد عليهم، وكلهم تقريبًا أجمعوا على أن تغيير المحيط هو الحل الأمثل بالنسباله واللي ممكن فعلًا يساعده.

هز الدكتور إبراهيم رأسه مؤيدًا وهو يتمتم:

– مضبوط، دي فعلًا أول خطوات المساعدة لأي مدمن، حاجة إحنا بنسميها في برنامجنا العلاجي (الخطوة أولى)، ومدلولها تغيير المناخ الإدماني اللي يوفر له ابتعاد عن أشخاص وأدوات وأماكن.

أيده الأخير بهزة رأس مماثلة ثم أكمل:

– قالولي برضو على غرف مجانية بتعمل اجتماعات تأهيل للمدمنين هو لازم يحضر فيها، اسمها زمالة المدمنين المجهولين تقريبًا، بس أنا معرفش بسبب خوفي على مستقبله وللا افتقاري لثقافة المرض متحمستش للكلام ده.

زي ما قلت لحضرتك أنا اكتشافي لمشكلة شريف كان في النص الأول من سنة تانية جامعة، يعني كل اللي كان فاضله عالامتحانات وقتها كان مجرد شهور حبيت خلالهم أجازف عشان متضيعش عليه السنة، وراهنت على إن أجازته اللي هينزل فيها مصر بعدها هتكون هي فرصة التغيير اللي جايز فعلا يكون محتاجلها.

بدا وكأن الحروف جميعها تؤنبه، وتخرج بتثاقل من بين شفتيه جاذبة معها أنفاس صدره المختنق، فتراوده عبراته أن ائذن لي بالخروج، وهو يرمق بعينيه وداد أمامه وبذات صوته المبحوح يواصل:

– الكلام ده من شهور، استنيت لآخر يوم في امتحاناته وبعدين حجزتله الطيارة عشان يرجع بيها لمصر، وساعتها بس كلمت

وداد أحكيلها عن كل حاجة، واعترفتلها أني برغم الفرصة التانية اللي منحهالي القدر، برضو منجحتش.

خفض رأسه بعد انتهاء العبارة ليعود الصمت، فلم يشأ الدكتور إبراهيم إضافة حمل عليه واتجه ببصره نحو وداد قبل أن يغمغم:

– أستاذة وداد، شوفي هو سؤالي المرادي هيكون غريب، بس أعتقد أن إجابته هيا مفتاح اللغز في شخصية شريف.

أثارت طريقته اهتمامها وفضول جلال الذي رفع رأسه نحوه بدوره معتدلًا مثلها أمامه وهو يستطرد:

– حاجة ليها علاقة مباشرة بعقله الباطن، اللي على أساسه خد كل القرارات.

أطلت من أعينهم نظرة عدم الفهم فتراجع في المقعد أمامهم فاركًا عينيه بكفة من فرط الإجهاد وأكمل:

– هشرحلكوا.

***

الفصل الثامن

«حُب!»

***

– إنت ليه بتعمل كده؟ ليه مستهون بمشاعر كل الناس اللي بتحبك؟

– كل الناس؟ مابلاش مبالغات يا ياسين، أنا مفيش حد بيحبني.

– إزاي يا شريف؟ إزاي مفيش حد بيحبك؟ طب أنا دلوقتي بكلمك ليه؟ ده أنا أخوك التوأم يا أخي، هو صحيح يعني أنا وانت طول عمرنا مختلفين ونازلين مديين ضهرنا لبعض، بس سيبك مني أنا يا أخي، فكر في أمك، أمك اللي انت مشفتهاش زيي من يوم سفرك، مشفتش الضي اللي غاب من عينها، لأنك لو شفته كنت هتفهم هيا قد إيه بتحبك.

–...

– إيه؟ مالك سكت ليه دلوقتي؟

– سكت عشان صعب أفهمك أن الحب مبيتشافش يا ياسين، الحب بيتحس، غير كدا اتأكد تمامًا إنك مخدوع.

سرت المحادثة القديمة في عقلي كارتعاشة صقيع عابرة امتزجت بكلمات ثلاث همس بها الدكتور إبراهيم الجالس أمامي ببطء شديد:

– حب، حرية، وطير صغير.

معانٍ ثلاثة لازمتني في فترة فقدان الوعي، عنها كان سؤاله الأخير لهما:

– شريف في فترة الغيبوبة كانت بتمر عليه لحظات اضطراب كان بيهلوس دايمًا خلالها بالتلات كلمات دول.

سألهما عن مقصد كلماتي في وقت لم أكن فيه أنا أدرك عن سابق عهدي بالحياة أي شيء، كنت أقف فعليًا حينها بأقل من نصف استيعابٍ على عتبة الباب الزجاجي المزخرف لمدخل التأهيل؛ أتابع ببصري وليد الذي دلف أمامنا إلى الداخل قبل أن يلكزني ذاك الواقف بجواري وهو يهمس بانفعال مكتوم:

– أخيرًا وصلنا، هو ده التأهيل بقى يا زميلي.

آلمتني لكزته قليلًا، مضطربًا كنت، ولذلك في اعتقادي لم أرَ ما يستحق الانجذاب حقًّا لمكان كهذا، ليست مؤثرة في نظري تلك الفوارق.

البهو الواسع الممتد أمامي عكس ضيق المكان السابق، ذلك التلفاز الكبير المعلق في أحد الأركان، وأولئك الموجودين يطلون علينا بنظراتهم المختلسة لا يبدو في ملامحهم ابتئاس كالآخرين هناك، يحدثهم معتز بصوته القيادي مشيرًا نحونا.

– رحبوا يا شباب بزمايلكوا الجدد، من النهار ده هيكونوا في التأهيل معانا.

لم ينتظر الآخر بجواري رد فعلهم، سبقني داخلًا في لهفة رافعًا يده بالتحية للجميع، بدا المكان مألوفًا بالنسبة له، بينما أنا بالحيرة والتساؤل أتبعه، الجدران نظيفة، والهواء نقي لا أثر لرائحة العطن فيه، تلك النافذة الكبيرة أيضًا، والتي احتلت نصف مساحة الجدار المقابل لي كانت إضافة ملحوظة، لماذا أشعر بالريبة حيالها؟ هل تراني اعتدت العتمة؟ أم أن شيئًا بين درفتيها المفتوحتين حمل لي ما يخشى العقل الباطن استرجاعه؟

اقتربت منها برغم خوفي، وبرغم ترحيبات الجميع التي لم تستوقفني إحداها، ملامح بالكاد تبدو واضحة في خيالي تتشكل هوينة بعد هوينة مع الاقتراب، شعر أسود حريري، وابتسامة كالبحر تجذبني لأغرق، ألامس الإطار الخشبي بيدي، وأطل بعين شاردة إلى منطقة من العدم باتت ملامحها فيها تكتمل، عيناها العسليتان، ونظرة فيهما أضفت لإحساسي قليلًا من الحنين لم أميز تمامًا حينها تفاصيله، ولكني بشيء من المجهود أعرفها، إنها تلك التي صنعت نوافذ الكون بأسرها كي تُطِل.

***

وقفت كتمثال من الشمع...

هكذا وصفت وداد قبل أن تستطرد في سرد المشهد بأكمل تفاصيله كما كان، متسمرًا بعينين اتسعتا اندهاشًا في غرفته الخاصة

أمام النافذة التي انعكس فوق وجهه منها شعاع الشمس الذي ألقى من ورائه ظلًا بامتداد الأرض، أثارت وقفته حفيظتها وهي تدلف عبر باب الشقة المفتوح بأكياس الطعام في يدها فسألته:

– مالك يا ياسين؟ واقف متخشب عندك كدا ليه؟

لم يحرك من موضعه ساكنًا، ولم يشعر حتى باقترابها من الصالة نحوه في خطوات زادها صمته فضولًا وهي تكرر متوترة:

– يا بني ما ترد عليا في إيه؟ وفين أخوك، أنا مش قلتلك ميروحش في حتة لغاية ما أرجع؟

مرة ثانية لم يجبها، فدفعها الأمر لنقل بصرها صوب ما يطل هو نحوه قبل أن تتراجع من فرط الذهول، فهناك على الجهة الأخرى أمامها، ومن خلف فجوة صغيرة بين ضلفتي إحدى نوافذ البناية المقابلة رأته... شريف، ذلك الذي سألت عنه لتوها...

كان هناك محتضنًا بجسده العاري في قوة تلك التي فقدت كل شعور لها بما يحيط بين ذراعيه: إيما، تلك الفتاة الآسيوية المراهقة، والتي سكنت مستقلةً وحدها منذ أعوام هذا المنزل القريب، محمر جسدها إثر اعتصاره، وشفتاه تلتهمان في شبق منها كل ما تصلان إليه، تمسح بذراعيها المرتعشتين على رأسه أن لا تتوقف، لا ينبغي للحظة كهذه أن تنتهي، وتعلن بأنات التأوه المكتومة عن احتياج للمزيد... في جنون تحركت يداه فوق حناياها بحثًا عن كل موطن للشهوة، رافعًا إياها عن الأرض يلثم رقبتها بمزيد من القبل الساخنة مع اهتزاز ضلفتي النافذة إثر احتكاكهما بها.

مشهد صادم استقبلته وداد بعينين تحجرت مقلتاهما، وشفتين انفتحا لمناداة اسمه دون وعي منها مقرونًا بنبرة استنكار حقيقية:

– شريف؟

اقترنت صيحتها بتوقف لثورة القبلات الهائجة مع التفاتة من كليهما نحو مصدر الصوت، لحظة تجمد خلالها المشهد، انحنت بعده الفتاة متوارية لستر جسدها العاري في حين ظل شريف بأنفاس صدره المتلاحقة معلقًا عينيه بعيني أمه التي التهمته صدمتها.

دقائق مرت بعدها كانت ما لزمه للوقوف برأس مطرق على عتبة الباب أمامها وهي تسأله بكل انفعال معروف:

– إيه اللي أنا شفته ده؟

– ...

– رد عليا؟ إيه اللي كنت بتهببه هناك مع الزفتة دي؟

صمت آخر جاوبها به، لم تجد أمامه بديلًا عن صفعة هبطت بها على صدغه تردد صداها في أذن ياسين الذي ظل كما هو في غرفته موليًا لهما ظهره بعد أن أغلق النافذة تمامًا، متسللًا عبر أذنه منهم فحوى حوار لم يطل:

– انطق قوللي، كنت بتعمل إيه؟

– عايزاني أرد أقولك إيه يعني؟ اللي انتي شفتيه؟

نطقها شريف بوقاحة لم تكن متوقعة، قبل أن يستطرد بانفعال

تعالت نبرة الاحتداد الغير مبررة فيه:

– عايزاني أقولك آسف وغلطان وللا أعترفلك بوساختي؟ أنهي فيهم اللي عايزة تسمعيه؟ إني زبالة ومذنب وعمري ما هكون بالنسبالكوا الشخص المحترم اللي انتوا عايزينه؟ خلاص يا ستي، أديكي عرفتيها، أنا زبالة وعمري ما هبقى الحاجة اللي انتوا عايزينها.

تمتمت شفتاها المرتبكتان أمام انفعاله بشيء لم يسمعه، ولم تعِ نفسها معناه، بينما استمر هو في صراخه دون توقف:

– مستغربين ليه لما إنتوا بإديكوا اللي وصلتوني لكده؟ دلوقتي بس اهتميتوا وراجعين تدوروا ورايا؟ دلوقتي متضايقين أوي من تصرفاتي ومن كل اللي بعمله؟ فين إنتوا أصلًا من زمان؟ وللا أقولك إنتوا مين أصلًا؟ كنت فين أنا من تفكيركوا يوم ما قررتي إنتي وأبويا تنفصلوا وتختاروا الاختيار اللي إنتوا بس شايفينه صح من وجهة نظركم؟ وبتعارضوني في إيه دلوقتي وانا من وجهة نظري زيكم بختار؟ بختار أعيش بالشكل اللي رافض تمامًا أن حد فيكوا يشاركني فيه، بختار الحرية اللي إنتوا بأنانيتكم طول الوقت حرمتوني منها، لمجرد بس إني كنت أنا وأخويا صغيرين.

قالها ثم انهار دفعة واحدة بين أحضانها يبكي بلا توقف.

***

بشرود تام قبعت إشراق هانم داخل السيارة إلى جوار نعيم الذي

تساقط جفناه من الإرهاق وعلى صوت شخيره المتقطع الذي شاركها خواطرها وحديثا في نفسها غمغمت:

– أنا مش ست وحشة للدرجادي يا نعيم، أنا عمري ما كنت ست وحشة، أنا بس مكانش عندي مانع لو كل الناس يشوفوني كدا، ما عدا جلال.

لم تكن تنتظر ردًّا منه، كانت فقط تسترسل في إفراغ ما تحويه مشاعرها من أنات، تتخيل كل الوجوه اللائمة أمامها، كل نظراتهم المتربصة ترمقانها بعين من لهيب.

– صحيح انتوا باصينلي كدا ليه؟ إيه مدى الحقارة اللي شايفينها فيا قدامكوا عشان أبقى المذنبة الوحيدة في نهاية كل طريق؟ واحدة خايفة على ابنها، بتفكر في مستقبله ومستعدة تحارب الدنيا كلها عشان تحافظله عليه، هي دي التهمة؟ زعلانين أوي عشان كان ليا حق ورفضت أفرط فيه؟ جريمة إني مسكت في حلم زرعته وكبر قدام عيني يوم بعد يوم ولما لقيت غيري جي ياخده عالجاهز حاربته؟ هو ده جرمي؟

كانت نبراتها تتهدج بالرغم منها، والعرق المتكون في كفيها يبلل مقبض العصا التي تشبثت بها واهتزت بفعل ارتعاشة الانفعال التي خالجتها، تؤلمها تلك النظرة التي أطلت من عين ابنها نحوها حين رأته، يحرقها لومه، فتتعالى ألمًا من نفسها صيحات التبرير.

– أيوة أنا اللي قلتلها إنه اتجوز، فيها إيه يعني؟ ما هي كان مصيرها هتعرف، الزمن كدا كدا كان هيقولها في يوم من الأيام، أنا بس

استعجلتهولها مش أكتر... وبعدين مانا مضربتهاش على إديها عشان تطلب الطلاقن هي اللي بكامل إرادتها اختارته، هي اللي اتنازلت عنه عشان عارفة ومتأكدة إنه أصلا من الأول مكانش بتاعها.

حاولت الفرار بكلماتها من كل تلك الأعين المتجمعة أمامها تحمل نفس النظرة القاسية التي رمقها بها جلال، ثم صاحت من فرط اللوعة:

– يا غبي!

اضطرب جفنا أمين الراقد جوارها مع الصيحة، وتحركت رأسه موقفة شخيره الذي لم تعد هي مدركة له وهي تستطرد بثورة تواري ذعرها:

– دفنت نفسك في وهم حفرة اسمها الحب، غميت عنيك ومشيت زي أعمى كل ما يخبط في حيطة يلوم غيره... متبصليش أنا البصة دي، أنا لو حقيقي أنانية ومبحبكش كنت خليتك تبصها لنفسك...

– إشراق هانم، يا إشراق هانم، حضرتك كويسة؟

انتزعتها من خواطرها نداءات أمين السائق الذي استيقظ في تلك اللحظة متنبهًا لاحمرار وجنتيها الزائد، ولذلك العرق الغزير الذي تصبب فوق جبينها مع يديها المرتجفتين بشكل واضح فوق العصا، فنظرت نحوه للحظة خامرتها خلالها برودة كالثلج تسللت عبر خلاياها العصبية مخلفة تنميلًا عجيبًا اقترن بضغط دمها الذي انخفض لحده الأدنى، قبل أن تنهار مقاومتها دفعة واحدة، ليسقط رأسها بلا قوة إلى

جواره، وبلا حراك.

***

– قصاد حاجة غالية شايفها بتضيع منك يا دكتور، إيه التصرف الوحيد اللي ممكن تعمله؟

ألقت عليه وداد السؤال وهي تنظر مباشرة في عينيه ففكر مليًّا إبراهيم قبل أن يجاوبها:

– هحاول أخلق لها دافع عشان تفضل.

أهدى لها بحكمة إجابة تنتظرها فمالت في جلستها نحوه وهي تكمل السرد:

– وهو ده بالضبط اللي أنا عملته، لما عرفت أنو في علاقة عاطفية بينه وبين البنت اللي ساكنة قصادنا في المنطقة...

برغم صدمتها في البداية، وبرغم تعارض الأمر برمته مع مبادئها وتوقعاتها إلا أن شيئًا ما في الظروف المحيطة جعلها تتروى مع ذاتها متسائلة: «**وما الضير في ذلك؟ ما الأزمة إن حققنا له رغبة؟ ذلك الفتى الواقع تحت سيطرة المرض المزمن ماذا لو كانت تلك الفتاة بديلًا لاحتياجاته؟ قد تسحبه هي بعيدًا عن فخ المرض، أقلها لفترة أو ربما للأبد**».

هل كانت تفكر بمنطقية حينها أم أن عاملًا آخر كان يوجه أغراضها؟ دارت تلك الأسئلة بينها وبين صورتها المنعكسة أمامها في المرآة المعلقة فوق حوض الحمام الصغير، بيد مرتعشة فتحت

الصنبور، ثم وضعت رأسها تحته لتتخللها مياهه الفاترة.

لأقل من دقيقة ظلت على وضعها مغمضة العينين، تترك لصوت المياه المنهمرة مهمة جرف الأفكار السلبية بعيدًا عنها قبل أن تحسم الأمر مغلقة الصنبور لتعتدل من جديد، جففت رأسها بمنشفة فوق كتفيها، ثم همت بالخروج ليعترض طريقها ياسين... شهقت في البداية متفاجئة وهي تهتف:

– خضيتني يا ياسين، مسمعتش صوت باب الشقة وانت بتفتحه.

لم يجبها الأخير بغير نظرته الجامدة وتمتمته:

– محبيتش أزعج حد، قلت إنتوا أكيد نايمين.

تنهدت وهي تكمل تجفيف رأسها قائلة:

– هييجي منين النوم؟ وشريف أخوك من ساعة اللي حصل الصبح وهو قافل على نفسه الأوضة ومش عايز يخرج منها.

منحها إيمائة رأس باهتة المعنى قبل أن تقرر مشاركته شعورها مغمغمة:

– ياسين أنا قلقانة على أخوك، حاسة إنه بيضيع مني ومش عارفة أتصرف صح ولا أعمل حاجة.

تماسك لتخرج كلماته هادئة وهو يرد:

– مش هيضيع ولا حاجة اطمني، شريف واعي وبيعرف ياخد

اللي هو عايزه.

لوحت بيديها أمامه وهي تهتف:

– يا ياسين أخوك مدمن، ودا أكيد بسبب ظروف نفسية صعبة هو بيمر بيها، لازم تقف جنبه وتكلمه، حاول تنصحه.

أطلقت شفتاه ضحكة متهكمة قصيرة تمتم بعدها:

– على كدا بقى كل اللي عنده ظروف صعبة يروح ياخد مخدرات؟ وبعدين منا كلمته كتير، بس هو مبيسمعش لحد.

أشارت له أن لا وهي تهز رأسها نافية مع قولها:

– مش قصده، أخوك دلوقتي في وضع غير مستقر.

ثم انخفضت نبرتها وهي تكمل:

– لدرجة أني بصراحة مش عارفة، مواجهتي ليه الصبح كانت تصرف صح وللا مكانش المفروض إني أعمل معاه كدا؟

ضاقت حدقتاه أمامها وهو يسأل بنبرة استنكار:

– مواجهتك؟

لم تستوقفها نبرته المستنكرة، تابعت متخطية تعليقه:

– أقصد إني كان المفروض أتعامل بدرجة تفهم أكبر، مكانتش ليها لازمة العصبية اللي اتعاملت بيها معاه دي... هو غلطه أيوه كبير، بس في نفس الوقت أي شاب في سنه معرض إنه

يغلط نفس الغلطة، ومفتكرش أنا أبدًا أن الزعيق والعصبية والكبت هيبقوا هما الحل الصحيح في أمور زي دي، خصوصًا لو مع حد في وضع شريف.

قالتها ثم رفعت عينيها نحو وجهه الجامد تستطرد:

– عشان كدا أنا فكرت ووصلت لقراري، لو أخوك بيحب البنت دي فعلًا، فأنا معنديش مانع أروح من بكرة الصبح أخطبهاله.

وأمامها بعد العبارة، عقد ياسين حاجبيه تمامًا كما فعل جلال حين انتهت من روايتها داخل المكتب أمام الدكتور إبراهيم الذي رصد انفعاله فمال نحوه يسأله:

– خير يا أستاذ جلال؟ واضح إنك معترض في كلام مدام وداد على كذا حاجة؟

تراجع أمامه الرجل ملوحًا بيديه أن لا وهو يغمغم:

– لا أبدًا، أنا بس أصلي أول مرة النهار ده أعرف حاجة عن قصة البنت دي.

تمتمت وداد متهكمة:

– وانت يعني من إمتى كنت عارف أي حاجة عن حياة ولادك؟

بشيء من العصبية رد عليها:

– مكنتش أعرف كتير فعلًا، بس أنا كنت فاكر إن حالة شريف

ساعتها، وخصوصًا بعد ما وضحتهالك في التليفون وهو نازل أجازته الأخيرة، كانت تستدعي إني يكون عندي خلفية عن أي تطور بيحصل في حياته.

لوت شفتيها محاولة البحث له عن حجة في حين قاطعهم إبراهيم وهو يقول بنبرة رصينة:

– يا ريت دلوقتي نركن التفاصيل الشخصية دي على جنب، إحنا خلاص تقريبًا قربنا نخلص.

ثم التفت نحو وداد ليسألها:

– المهم مقولتليليش يا أستاذة وداد عملتي إيه بعد كدا؟ هل فعلًا خطبتيهاله؟

أومأت برأسها علامة الإيجاب قائلة:

– أيوة يا دكتور، بعدها بيومين رحت أنا وهو لعندها في البيت، وخطبتهاله.

***

– بأي قدر أحببتها يا شريف؟

عاجلني الدكتور إبراهيم بعد لحظة سكوت بسؤاله فلم أجد غير رد واحد مختصر حمل حقيقة ما يدور بداخلي:

– أحببتها بقدر كراهيتي الآن لكل شيء.

– ردك كدا فيه حاجة غلط، الحب عمره ما كان مرادف للكراهية.

– ده بيعتمد على مفهومك الخاص للحب والكراهية يا دكتور.

– مش فاهم.

– مش موضوعنا دلوقتي يا دكتور، كمل إنت بس بقية كلامك.

– اللي باقي عمومًا مش كتير، بس عايزك تقوللي إنت الأول، بقالك نص ساعة قدامي سرحان وباين عليك بتفكر في حاجة، إيه هيا؟

ابتسمت وأنا أبادله مع مرافقنا الثالث في الغرفة نظرة طويلة ثم أجبت:

– بفكر في أول اجتماع تأهيل حضرته هنا.

قلتها ثم سرحت لوهلة أخرى، وشرعت أحكي.

***

هذا ما قصدوه باجتماعات التأهيل إذًا، رأيتهم من حولي يجلسون متراصين على مقاعدهم الموزعة بشكل دائري في غرفة خلت من أي تفاصيل ملفتة أخرى سوانا، أجلس كواحد منهم وإلى جواري عسلية، ذلك الذي مال هامسًا في أذني:

– دي بقى يا سيدي أوضة التأهيل في المصحة، تقدر هنا تهري بأي كلام إنت عايز تقوله، كلهم هيسمعوك.

كتم ضحكته بعد العبارة الأخيرة إثر نظرة حازمة من عين وليد الذي شاركهم الدائرة ممسكًا بين يديه كتابًا أزرق اللون، أخبرني بأنه اجتماع أول أشارك بالمتابعة فيه فقط، سأراقبهم ليس إلا، الهدوء مخيم على الجميع وكلهم يجلسون في وضع التزام.

كم أعشق الصمت علهم يبقوا على هذا الوضع إلى الأبد... خبطات ثلاثة على مسند كرسيه الخشبي طرقها وليد، ثم تكلم محدثًا الجميع:

– زمالة المدمنين المجهولين مجموعة المصحة، أهلًا بيكوا في اجتماعنا الغير رسمي المنتظم، أنا اسمي (وليد) مدمن بدير اجتماع النهار ده عشان مشربتش خمرة ولا مخدرات.

ارتعش جسدي مع هدير أصواتهم الذي ارتج به المكان تحية للمتحدث:

– أهلًا يا وليد.

استكمل الرجل بعد تحيتهم حديثه مواصلًا:

– نبدأ اجتماعنا كالعادة بلحظات سكون نفتكر كنا فين وبقينا فين، وندعي لكل مدمن بيعاني داخل وخارج المكان.

ها هو ذا الصمت وقد عاد مرة أخرى لأرجاء المكان، أراهم وقد أطرقوا الرؤوس وأغلقوا أعينهم على تأملات لا أدري عنها شيئًا، أحتاج لمثل تلك اللحظة مثلهم، فلربما استطعت خلالها محاصرة شتات أفكاري الشاردة في كل الاتجاهات.

لحظات من الصمت لم تطل، فتح الجميع بعدها أعينهم.

– في حد بيحضر اجتماعنا هنا لأول مرة؟ في حد هنا بيحضر اجتماعنا لأول مرة؟

كررها وليد، ضاغطًا على حروفها في المرة الثانية لتنبيه ذلك الذي جلس بجواري فتنبه رافعًا يديه إلى أعلى وهو يقول بنبرة حماسية:

– أنا عسلية، مدمن.

ارتفع هدير أصواتهم من حولي ثانية:

– أهلا يا عسلية.

ابتسم المشرف لحماسته ثم تابع بعد هتافهم موجهًا حديثه لرفيقي:

– عايز أرحب بيك وأقولك إنك أهم عضو معانا النهار ده، بطلب منك تكون متفتح ذهنيًّا وتدي لنفسك فرصة، وبتمنالك استمرار في التعافي بمساعدة البرنامج.

هز عسلية رأسه متفهمًا حديث الرجل الذي تابع يسأله:

– عندك أي مشاعر سلبية أو تحفظات تحب تخرجها من جواك في أول اجتماع؟

صمت عسلية قليلًا وهو يعقد حاجبيه ممصمصًا جانب شفته السفلى قبل أن يعاود هز رأسه بنعم. فأشار له محدثه أن ابدأ قائلًا:

– طب عرّف نفسك مرة تانية للناس واتفضل احكي، كلنا سامعينك.

أنهى عبارته متخذًا مع الجميع وضع الإنصات في حين اعتدل الأخير إلى جواري باعتياد بادٍ رافعًا يديه مرةً أخرى وهو يهتف بصوت قوي:

– أنا عسلية، مدمن....

وباعتياد مماثل جاوبه الهدير الجماعي:

– أهلا يا عسلية.

ثم ودون انتظار بدأ الحديث.

***

فجأة وبشكل مضطرب ارتفع صوت طرقات متتالية سريعة على باب المكتب الذي حوى كلا من وداد وجلال والدكتور إبراهيم في غرفة ذلك الأخير، فالتفت نحوه في سرعة مواجهًا عم راضي حارس البوابة الذي دلف بعد طرقاته داخلًا وهو يهتف بتوتر:

– أنا آسف يا دكتور، بس الحاجة والدة الأستاذ تعبت برة فجأة والسواق عايز حد يلحقها.

انعقد حاجبا الدكتور إبراهيم وانقبضت عضلات وجه وداد في حين هب جلال من مكانه مندفعًا إلى الخارج وهو يصيح:

– مالها أمي؟

تخطى المسافة الفاصلة بينه وبين السيارة في سرعة قافزًا درجات السلم بلا وعي متجاوزًا الجميع ويتبعه إبراهيم بأقصى قدرة

له على الهرولة.

كانت هناك بداخل السيارة ترقد في غياب تام عن الوعي على الكرسي المجاور للسائق والذي أعاد نعيم ظهره للخلف، وإلى جنبها حقيبتها التي أفرغ الأخير كل محتوياتها بحثًا عن شيء يمكنه إفاقتها.

هتف في قلق من خلف الرجل الملتاع قائلًا:

– أنا معرفش إيه اللي حصل يا جلال؟ كنت نايم وفجأة صحيت لقيتها بتكلم نفسها وغرقانة في عرقها، وفلحظة بعدها راحت زي مانت شايف كدا.

متهيألي دي كومة السكر اللي كانت بتجيلها زمان، قلبت شنطتها عشان ألاقي أي دوا معاها بتاخده ملقيتش.

لم تخترق كلماته حائط الذعر المسيطر على جلال وهو يتشبث بكفها البارد في قوة محاولًا كبح جماح مشاعره في حين اقترب الدكتور إبراهيم ممسكًا بيدها لقياس النبض واضعًا اليد الأخرى فوق جبينها قبل أن يقول موجهًا حديثه لعم راضي الذي اقترب ناحيتهم من بعيد:

– خلوا بالكوا من المكان لحد ما أرجع.

ثم التفت نحو نعيم وجلال يحدثهما:

– لازم ناخدها لأقرب مستشفى، هتحتاج تدخل العناية فورًا.

قالها وهو يستقل المقعد الخلفي للسيارة دون إضافات قبل أن يصيح:

– بسرعة.

وعلى الفور اتخذ كل من جلال ونعيم مكانيهما داخلها معه قبل أن تنطلق بهم في سباق مع الوقت، ومع القدر.

***

اتجهت الأنظار جميعها نحوه ومعهم فعلت، لم يبد مثيرًا للريبة في حديثه أمامي تلك اللحظة، بدا صادقًا لحد تعجبته وهو يتنحنح بعد تحيتهم له مغمغمًا:

– صدقوني لو قلتلكوا أن دي مش أول مرة أقول فيها الكلمة دي في اجتماع، بس حقيقي المرادي كأنها فعلًا أول مرة... أنا هاني الشهير بعسلية، مدمن، دايمًا كانت عندي حتة الإنكار اللي بتقوللي لأ، إنت مش كده.

يمكن آه تكون بتتعاطى مادة معينة بتغير مودك، ويمكن فعلًا تكون بتحس بحاجة ناقصاك لما متكونش المادة دي موجودة، بس ده كله مش معناه أبدا إنك مريض أو محتاج لمكان تقعد وتتكلم فيه زي اللي جامعنا دلوقتي ده.

كانت عيناه ترصدان السجادة فوق الأرض وسطهم، وأعينهم ترصدانه في تركيز واحترام وهو يتابع:

– إن التحفظات تسلبنا فوائد البرنامج، جملة تافهة وبسيطة جدًّا في البرنامج اللي احنا شغالين عليه ده مفهمتهاش أنا غير دلوقتي، بعد 7 سنين إدمان نشط وانتكاس اترددت فيهم على

أكتر من مصحة ومركز تأهيل.

التحفظات، السر اللي جوه كل واحد منكو ومستخبي مش عايز يطلع، سواء بسبب خوف أو خجل، وللا حتى إحراج.

كان يدقق النظر في السجادة، لا يرتب حديثه وإنما يخرج منه تلقائيًّا بغير حاجة لتنظيمه.

– واحد قبل كدا في واحد من الاجتماعات اللي حضرتها قبل آخر انتكاسة قالي إننا بندخل أوضة الاجتماع شايلين جوانا زبالة، أرضية المكان اللي احنا قاعدين فيه بتبقى أنضف مننا، والشاطر بس هو اللي يخرج مفرغ حقيقي اللي جواه، وسايب وراه الوساخة على أرضية المكان.

لم يتعجب أحدهم لفظه، يبدو أنهم معتادين على نوع كهذا من أساليب الوصف والتعبير... سارحة أعينهم مع سكناته ونبرته، تنهيداته المتكررة، وهنات الضحك الصادرة من شفتيه بين الحين والآخر.

– جملة تانية اتقالتلي برضو موجودة في الكتاب اللي معاكم دلوقتي، إن أفكارنا بتنمو في الظلام، وتحترق في النور، وأنا الصراحة سبت أفكاري بتكبر، مفضحتهاش، عمري ما فضحتها، كنت على طول بخاف أطلع عيوبي قدام الناس لحد ما طفحت على وشي، وبقيت بشوفها قصادي في المراية وفي عين أي بني آدم بيبصلي.

فرد ذراعيه على امتدادهم أمامنا وهو يكرر:

– أنا مدمن، حقيقي أنا مدمن. بدليل انتكاستي الأخيرة دي واللي قبلها واللي قبلها... أنا مدمن، بدليل أثار الحقن اللي في دراعي، والجلطة اللي في رجلي، بدليل الجروح اللي مالية وشي وجسمي من خناقات الشوارع والمواقف اللي حطيت نفسي فيها، أنا مدمن بدليل أحلامي اللي محققتش منها أي حاجة، وحبايبي اللي خسرت منهم كتير... أنا وصلت لمرحلة كنت بحقن فيها الحقنة لنفسي وأنا بعيط، ألف حاجة بتقوللي إنت غلط، ومليون يقولولي إن ده طريقك الوحيد... كتير أوي اتمنيت الموت، بس كنت بفوق عشان أعرف إني حتى مستاهلش مجرد التمني... أمنية الموت تلك أعرفها، وأدرك قدر الحسرة من إلا تنلها.

لفتت انتباهي تلك الجملة من حديثه فتأملته مطرقًا يجلس بجواري ويواصل حديثه:

– أنا عندي النهار ده 30 سنة، مش متجوز، معنديش شغلانة ثابتة، معنديش حتى في نطاق حياتي واحد يثق فيا أو أقدر أطالبه بفرصة جديدة يديهالي، عشان أنا استنفدت فعلًا كل الفرص، ومش باقيلي النهار ده غير فرصة واحدة بس مع ربنا وعايزه يديهالي.

تهدجت نبرته عند تلك النقطة وبدأ يبكي.

– عايزه يسامحني لأني فعلا مبقتش قادر أسامح نفسي، بقالي سنين بحاول أهرب وكل اللي بعمله إني واقف عند نفس النقطة... السر اللي فقلبي محاوطني وسادد قدامي كل

المخارج، ومبقتش شايف قدامي حل غير إني أفضحه، جايز ألقى في اعترافي بيه التوبة.

قالها وهو يتذكر الحدث القديم ويحكيه، والده أمامه على السرير في منزلهم الضيق يعاني، يتصبب العرق من جبينه وترتعش كل خلية من خلاياه وإلى جنبه والدته التي اعتصرت الكمادة مع آخر ما تبقى فيها من أمل قبل أن تضعها فوق رأسه داعية:

– جيب العواقب سليمة يا رب، جيب العواقب سليمة.

قالتها في وهن وقد فقدت من حولها كل ملتجأ ووسيلة... صوت الحشرجة المنبعثة من حلقه تعلن اقتراب النهاية، وعيناه الجاحظتان للحظة تنبئهم أن لا أمل قبل أن ينطفئ النور فيهما دفعة واحدة في لحظة اقترنت بصرختها الملتاعة وهي تحتضن جسده الذي سكن تمامًا.

وحده أمام المشهد كان يدرك الحقيقة، يتحسس في جيبه تلك الجرعة المخدرة التي ابتاعها بثمن علاج أبيه، كذبًا أخبرها بأنه فقد المال، سقط منه خطأً خلال طريقه للصيدلية، ربما كان لينجو الرجل لولا فعلته.

– أنا قتلت أبويا، قتلته عشان جرعة مخدر زايدة طمعت فيها، قتلته ومن ساعتها وأنا بضرب بس عشان أنسى اللحظة دي، وللأسف؛ عمري ما قدرت أنساها، فضلت شايلها حمل تقيل أوي في قلبي، حمل يخلي الموت بالنسبالك هدف، مش حاجة تخاف منها، يمكن لو رحتله هناك أقدر أخليه يسامحني، ده

اللي كنت بفكر فيه، ودا اللي أنا كنت عايزه...

بس في آخر انتكاسة ليا وفي اليوم اللي جابتني أمي فيه هنا حصلت حاجة غيرتلي طريقة تفكيري، لما شفت الدموع في عين الست الغلبانة وهي بتتحايل على إدارة المستشفى هنا عشان يدخلوني بفلوس أقل من اللي متعودين يحجزوا بيها الناس لمبة كبيرة في دماغي نورت، وسألت نفسي: إيه اللي يخليها تتذلل عشان كلب زيي ميستاهلش حتى إنه يعيش؟ حتى لو مش عارفة إني سبب في موت جوزها، بس كفاية عليها كم البلاوي والفضايح اللي سببتهالها...

أنا اللي كل الناس بقت تقرف حتى تبص في وشه، هو في حد لسه يهمه أمري؟ في لسه حد بيتوجع عشاني وعايزني أبقى كويس؟ في حد لسه مستعد يضحي بكرامته عشان خاطري؟ طب ليه؟ وليه إدارة المكان هنا برغم قوانينهم يوافقوا؟ إيه يا رب اللي كويس فيا إنت شايفه وعايزني أعيش علشانه؟ إيه اللي باقي جوايا يستاهل فرصة تانية بعد كل اللي عملته ده؟ تقدروا تقولولي؟

تأثر الجميع بكلماته دون أن ينبس أحدهم ببنت شفة احترامًا لتقاليد الاجتماع، وشعرت أنا بتعاطف رهيب نحوه، ونحو نفسي، تنهيدته التالية بدت وكأنها تنهيدتي، وعبارته الأخيرة ما زلت أذكرها:

– عشان السؤال ده بس، أنا المرادي بقولكم إني فعلًا وبمنتهى الوضوح: عايز أتعافى، وآسف لو طولت عليكم في الكلام.

أنهى كلامه فصمت خافضًا رأسه، ليرتفع صوت أكفنا جميعًا من بعده بالتصفيق.

***

من خلف حائط زجاجي داخل تلك المستشفى التي وصلوا إليها وقف نعيم يتابع بعينيه في هدوء يد جلال المربتة على كف أمه التي تمددت فوق سريرها أمامه قبل أن يتنهد ملتفتًا نحو إبراهيم القادم نحوه من آخر الممر وهو يسأل:

– إيه الأخبار؟ فاقت وللا لسه؟

أشار له نحوهم وهو يتمتم:

– الحمد لله.

شاركه إبراهيم نظرة إلى الداخل ثم اكتفى بهزة رأس قبل أن يتراجع ملقيًا جسده فوق أقرب مقعد انتظار إليه وهو يقول:

– الحمد لله إننا لحقناها، الدكتور بيقولي إن الموضوع كان وارد جدًّا لو اتأخر عن كدا يبقاله مضاعفات مش مضمونة.

اكتفى نعيم بدوره من المراقبة فتراجع هو الآخر ليتخذ مقعدًا بجواره قائلًا:

– إحنا متشكرين أوي يا دكتور، لولا معارف حضرتك هنا كنا يمكن خدنا وقت زيادة على ما يسعفوها.

هز له الرجل كتفيه أن لا شيء يستحق، بينما استمر هو:

– أنا مش عارف إزاي ده حصل؟ كانت بتتكلم مع نفسها وفجأة لون وشها اتغير ولقيتها بتقع قدامي، أنا قلت خلاص بتروح.

فرد إبراهيم إحدى قدميه لآخرها أمامه مدلكًا بيده على منطقة الركبة وهو يسأله:

– كان في حاجة مزعلاها؟

أومأ نعيم برأسه أن نعم متمتمًا:

– جلال بيه لما طلع من عندك قاللها كلمتين يظهر إنهم وجعوها أوي.

تفهم إبراهيم الأمر دون إضافة ثم قبع للحظة في الصمت مفكرًا قبل أن يسأل مرة أخرى:

– معاشر الناس دي بقالك فترة إنت يا اسطى نعيم؟

– يااااه يا دكتور، ده عمر، إنت بتتكلم عن حاجة بقالها أكتر من تلاتين سنة، أنا شغال عندهم من أيام البيه الكبير جوز الست إشراق الله يرحمه.

ارتفع في تلك اللحظة صوت رنين الهاتف المحمول الخاص بإبراهيم فالتقطه من جيبه متطلعًا عبر شاشته إلى اسم المتصل قبل أن يعقد حاجبيه في استغراب وهو ينهض مستأذنًا نعيم:

– بيتصلوا بيا في المصحة، بعد إذنك هشوفهم عايزين إيه؟

أشار له الرجل أن تفضل وهو يتابع ابتعاده المقترن بصوت كعب

الحذاء الأنثوي المقترب من جهة الممر الأخرى، فاستدار على إثره ليراها قادمة بقوامها الممشوق وملامحها الحادة الواثقة.

نهض مرحبًا بمجيئها مع قوله:

– جيهان هانم، كويس إنك عرفتي توصلي، أنا آسف لو قلقتك بس أنا كنت لوحدي ومكنتش عارف أتصرف.

أتاه ردها على عكس المتوقع باردًا خاليًا من المشاعر وهي تشير له بيدها في فتور:

– مفيش قلق ولا حاجة أنا كنت قريبة كدا كدا.

ثم أخرجت من حقيبتها علبة سجائر تناولت منها واحدة دستها بين شفتيها فسارع بتنبيهها:

– خلي بالك مانعين التدخين هنا في المستشفى.

تأففت في ضيق وهي تلقي بالسيجارة المنطفئة أرضًا دون اكتراث ثم سألته بنبرة حادة:

– طب هما خلصوا وللا لأ؟ وفين جلال عشان أنا عايزاه.

نهض منحنيًا يلتقط لفافة التبغ من فوق الأرض ليلقي بها في سلة مهملات قريبة قبل أن يشير لها نحوهم من خلف العازل الزجاجي قائلًا:

– جوة معاها أهو، بيطمن عليها بس عشان لسه فايقة، الحمد لله لحقناها على آخر لحظة زي ما قال الدكتور.

لم تعبأ بشيء من رده وهي تلتفت إلى حيث أشار راصدة تقبيل جلال لكف أمه في الداخل هامسًا لها بصوت لم تسمعه هي:

– سامحيني يا إشراق، لو أعرف أن كلامي هيجرحك مكنتش قلته، أنا كنت مخنوق بس.

وبإعياء واضح، وصوت واهن ردت عليه هي:

– أنا اللي المفروض أعتذرلك يابني، سامحني إنت أرجوك، سامحني بجد.

تأملها بكم من الحسرة باحثًا عن رد لم يجده فربتت بكفها المتعرق فوق ذراعه وهي تتحدث بصعوبة من فرط التعب:

– أنا كل اللي عملته معاك كنت عاملاه بدافع الحب، ومكانش عندي شك فإنه ممكن يضرك أو يبقى فيوم شر ليك، بس النهار ده أما شفتك بتلومني صدقتك، واكتشفت كدبة الأنانية اللي كنت معيشة نفسي فيها.

بصعوبة حاول اسكاتها للتهوين عليها قائلًا:

– مفيش داعي للكلام ده دلوقتي يا أمي، ريحي إنتي بس ومتشغليش بالك بالكلام عشان متتعبيش.

أطلقت ضحكة قصيرة واهنة تأوهت بعدها وهي تقول:

– يابني بكمالة كل الكلام اللي اتكلمته، منا طول عمري بتكلم بس وانت بتسمع، خليني المرادي أقول الكلمتين اللي فعلًا

هيريحوني.

ابتسم لها بدوره وهو يحتضن كفها إلى جوار وجنته بينما هي تلتقط بصعوبة أنفاسها لتتابع:

– كنت أصغر من أبوك يوم ما اتجوزته بعشرين سنة، ناس كتير اعترضت عالجوازة دي ساعتها، بس أنا مسمعتش كلام حد فيهم عشان كنت بحبه... كان بالنسبالي البطل، مثل أعلى زي ما بيقولوا، جامع في عيني بين الحبيب والأب.

سعلت وسط الحديث للحظة فأحاط كفها بقوة أكبر ذارفًا دمعة من عينيه على ذكرى والده الذي لم يره إلا من خلال الصور وحكاياتها وهي تكمل:

– لما جبناك كنت إنت الوردة الوحيدة اللي قطفهالي من روحه قبل ما يموت ويسيبني أفهم إن كل الناس اللي حذرتني كانت صح، وأنا لوحدي مع الحب الأعمى اللي اخترته مكناش فاهمين.

فهمت ساعتها بس متأخر هما ليه قالولي بلاش، بلاش تربطي مستقبلك بخيط مش مضمون اسمه الحب، لما حسيت بوجع الفراق لقيتني بقدم لكل واحد فيهم من جوايا ألف اعتذار...

لقيت نفسي بتقولي فادك بإيه الحب؟ عملك إيه؟ سابلك ورث زيادة؟ مكنتش محتاجاه، أنا كده كده كنت من عيلة مستريحة زي مانت عارف، طب سابلك طموح؟ كان كدا كدا عندي وكان ممكن أحققه بشكل أبسط وأأمن، سابلك إيه غير إنه سابك أرملة؟ ولا حاجة! غير شوية ذكريات وخيبة وألم، ومعاهم

حاجة واحدة جميلة بس هي إنت.

أنا عشت أيام اكتشفت فيها أد إيه الزمن ده مبيرحمش، وعشان أحافظ عليك كان لازم في كل يوم أسعى إني أكون أقوى برغم إن حاجات كتير أوي من الماضي كانت بتضعفني.

ربيتك وكبرت قدامي وأنا شايلة في قلبي شعور بذنب اختيار كتب عليك من صغرك تعيش يتيم من غير أب يطبطب عليك أو يكون جنبك يوم ما تحتاجله.

شعر باختناق أنفاسها فرفع عينيه نحوها يطالبها بالصمت ولكنها ابتسمت له مطمئنة وهي تستمر:

– فاهم دلوقتي أنا ليه اعترضت على جوازك من وداد؟ مش عشان الفرق الاجتماعي اللي كان بينك وبينها، ولا عشان هي بني أدمة مش كويسة، أنا اعترضت بس عشان شفت فعينك ناحيتها اختيار شبه اختياري زمان أساسه الحب وبس.

لا أنا ولا أبوك كنا وحشين، الحب اللي بيننا بس هو اللي كان وحش، دا اللي أنا كنت شايفاه، ودا اللي شفت إنه غلط كبير ممكن معاك يتكرر.

أنا كنت شايفة إن الحب اللي ميحترمش المنطق ده بيموت، وإن عاش بيعيش بس على موت اللي عايشين يفتكروه، مكنتش عايزالك النهاية دي يا جلال، مكنتش عارفة إني غلط، وإني لاغية كل تصاريف القدر والنصيب من حساباتي.

إنت مغلطتش لما جيت النهار ده تلومني لأني أستاهل فعلًا منك دا، أنا آسفة يا ابني، حقيقي أنا آسفة.

قالتها ثم انهارت في بكاء حارق ذُرِفَت له دموعه بدروه وهو يقبل يدها مرة أخرى منتحبًا مع قوله:

– مسامحك يا أمي، أنا والله العظيم مسامحك، ارتـ..

قطع عبارته بغتة مع صوت طرقات من خلفه فوق الحائط الزجاجي فالتفت إلى تلك التي وقفت وراءه بوجهها حاد النظرات تتطلع إليه منتظرة، ثم تمتم باسمها رافعًا حاجبيه في تعجب لوجودها في تلك اللحظة: زوجته الثانية، جيهان.

***

الفصل التاسع

«الوهمُ حقيقةٌ خَدَعَتك»

***

بشأني كانت تلك المهاتفة التي وردت الدكتور إبراهيم أثناء تواجده في المستشفى، توقعت ذلك قبل حتى أن يخبرني به وهو يجلس أمامنا أنا وعسلية مشبكًا أصابع يده أمامه ليستكمل القصة بتفصيلٍ منحني فرصة تخيل الصورة برمتها، كان يحكي وكأنما يعايش المشهد ثانية، لم يغفل أية تفصيلة، حتى تلك الذبذبات الصوتية التي صاحبت صوت محدثه في بداية المكالمة بسبب ضعف إشارة الاتصال داخل نطاق المكان حينها ذكره.

– الشبكة كانت ضعيفة في المستشفى هناك، ودا خلاني مضطر أنزل برة المكان خالص عشان أعرف أسمع باقي المكالمة كويس.

هز رأسه وهو يعاود استمتاعه بتذكر الأمر قبل أن يتابع:

– كان عاطف موظف الاستقبال اللي معايا هنا في المصحة، مصدقتوش أول المكالمة لما قالي إنها عايزة تاخدك وتمشي، قلت لنفسي إزاي؟ وسألته إيه اللي يخليها فجأة تاخد قرار زي

ده؟

لم يستوعب عقله الأمر في البداية، تلك التي أتت حاملة فتاها إلى هنا منذ أيام في ظروف كانت أشد قساوة، ثم قبعت لساعات معه بطول اليوم لغايةٍ ورغبةٍ وحيدة هي علاج ابنها، أنى لها في نصف ساعة فقط أن تلغي كل ما صنعته، وتتخذ قرارها المفاجئ بالرحيل؟ ساورته كل تلك الأسئلة بعد انغلاق الخط سارحًا يقف أمام البوابة الزجاجية غير آبه بانفتاحها فور استشعار راصدها الحراري اقترابه.

– هتدخل يا فندم وللا إيه؟

انتشلته عبارة رجل أمن المستشفى الواقف يرتدي زيه الزهري خلف مكتب الاستقبال قبالة باب الدخول فرفع عينيه نحوه لحظة قبل أن يهز رأسه معيدًا هاتفه إلى جيبه وهو يجيب:

– آه عفوًا، معلش أنا آسف.

ثم دلف عابرًا الساحة الداخلية متجهًا نحو المصعد الذي احتواه في رحلة عودته لطابقه المنشود، إلى حيث نعيم، إشراق هانم، وجلال، هذا الذي ينبغي أن يخبره بالأمر.

– مجاش في بالي وقتها غير أني أطلع وأقول لوالدك، هو الوحيد في اعتقادي ساعتها اللي كان قادر يتخذ قرار، أو على الأقل يفهمني هيا إيه اللي يخليها تعمل كده.

بات داخل الصندوق الكبير وكأنما يقلب أفكاره بين انعكاساته فوق الجدران المعدنية الأربعة التي أحاطت به لدقيقة أو يزيد قبل

أن ينفرج إحداها مع وصوله ليندفع بغير تركيز عبره مرتطمًا بتلك المتأنقة التي انبعث منها عطر أنثوي نفاذ وهي تخاطبه محتدة:

– في إيه يا أستاذ؟ مش تخلي بالك وانت بتطلع؟

لوح لها بكفيه معتذرًا دون النطق بكلمة وهو يفسح لها المجال لتخطيه دائرًا ببصره في المكان بحثًا عن الوحيد القادر في اعتقاده على تفسير الأمور، في آخر الردهة الطويلة أمامه رصده، كان يقف مستندًا بكفيه إلى نافذة كبيرة في نهاية الممر، فمشى إليه.

– صحيح كان غريب اللي والدتك عايزة تعمله، بس رد فعل أبوك لما رحت أقوله على قرارها حقيقي بالنسبالي هو اللي كان أغرب.

***

مضت نصف ساعة عليها منذ رحيلهم، تجلس وحدها في حجرة المكتب عاصفة برأسها الأفكار.

والآن يا وداد، ماذا بعد؟ ما هو فصلك التالي من روايتك الخاسرة هذه؟ أفقد آخر؟ أم وجع جديد تبدو مقبلة في الأفق رياحه؟ كانت تتجول في أركان المكان داخل المكتب أيبةً وذهابًا، مرتبكة، حائرة الوجد غير مهتدية لبر أمان ترسو عليه أشرعتها، تمتد يدها مداعبة أوراق التقرير الطبي الذي تركه إبراهيم خلفه، تقلب بين صفحاته، تقرأ الاسم المكتوب على صفحته الأولى: شريف جلال عبد العزيز، يعاودها خليط من الحوارات والصور.

– إنت فعلًا عايز تسافرله وتسيبني؟

– أيوه، هسافر يا أمي، ودا قرار نهائي.

انعكاسات الضوء الأزرق والأحمر على وجهها وفوق الأسفلت، أبواق سيارات النجدة والإسعاف، مشهد الأشلاء المتفحمة، دماء ينزفها جسد بالكاد يتنفس، وصرخاتها: «ابنك مات»، حسن: «عبيط بقى وغلبان زي ما أمي كت بتقول»، جلال: «أنا عمري ما خنتك يا وداد»، إشراق: «جوزك مع مراته التانية»، شريف: «الحرية اللي إنتوا بأنانيتكم طول الوقت حرمتوني منها»... لا...

تردد هدير الصيحة في رأسها من بين أصواتهم المختلطة جميعها دون صدى، لا، لن تترك نفسها رهينة هذا الضياع، عليها أن تنجو بما تبقى لها، امتدت يدها ملتقطة حقيبتها الملقاة على حافة كرسيها قبل أن تتجه في سرعة نحو باب المكان لتفتحه منادية على أقرب الموجودين أمامها فأقبل متسائلًا لتهتف بعصبية في وجهه:

– أنا عايزه ابني، روحوا جيبوهولي، مش عايزاه يفضل هنا دقيقة واحدة كمان، خدوا بقيت حسابكم وهاتولي ابني حالًا.

تلعثم الرجل أمام عصبيتها محاولًا تهدئتها:

– طب حضرتك إهدي شوية بس، هو إيه اللي حصل؟

صاحت بكل ثورتها فيه:

– مش هيدى، بقولك هاتولي ابني، عايزاه دلوقتي حالًا، إنت فاهم وللا لأ؟

أومأ الرجل برأسه أمامها في قلق، ثم ابتعد مختفيًا عن ناظرها ملتقطًا هاتفه المحمول ليبحث فيه عن رقم الدكتور إبراهيم الذي ما إن أتاه صوته على الجهة الأخرى حتى أخبره:

– ألو يا دكتور، أنا آسف عالإزعاج، بس في مشكلة مش فاهمها بتحصل عندي هنا.

***

هناك، في آخر الردهة الطويلة للمشفى وقف يستند بكلتا راحتيه على زجاج النافذة الكبيرة أمامه مقاومًا فقد اتزانه، محملًا بقدر لا يستهان به من القهر، وأسرار فضت له توًّا غشاءها تلك الراحلة من خلفه: جيهان.

وقع أقدامها المبتعدة من خلفه عبر الممر كمطارق تدك كل خلية في جسده، وتبدو صورته فوق الزجاج باهتة تمامًا كروحه، لم تطل عليه الحديث، كلماتها كانت موجزة، طليت بسم الحقيقة المرة، تلك التي نخشى دومًا مواجهتها ونمضى العمر كله هربًا من أن نفعل.

– أنا زهقت وعايزة أطَّلق يا جلال.

بدأت بها معه الحوار، لم تطلبها منه، كانت تأمره بها تمامًا كما أمرته بالزواج منها في السابق لكنه حينها لم يفهم: «**كل اللي أعرفه إني بحبك، بحبك وبس، ومش عايزة من الوجود أو منك غير حاجة واحدة بس، إنك تبقى معايا**» لا فارق بين الجملتين اليوم في نظره، فكلتاهما رغبة، وفي كلتيهما نجحت هي في تحقيقه.

تمامًا كما عارضها بالضعف في طلب الارتباط قديمًا فعل بالصدمة أمام طلب الانفصال المفاجئ منذ لحظات، بذات النظرة البلهاء واجهها، تسألها عيناه عن السبب، أخبرته بأنها ملت، تلك المدللة كان هو لسنين لعبتها، وها قد فرغت منه الآن، لم تخش بتاتًا مصارحته، ولم توارِ فيضًا من البجاحة بات يراه لأول مرة في عينيها الواثقتين أمامه وكلماتها المصطبغة بكل لامبالاة الأرض.

– يا جلال متأفورش الموضوع، أنا وانت عارفين أن التمثيلية اللي احنا فيها دي كان هيجيلها وقت وتنتهي.

– تمثيلية؟

ردد الكلمة من ورائها مندهشًا، أنى لكل هذا الماضي أن يغدو زيفًا؟ كيف كان المغرر به إلى تلك الدرجة؟ لا يؤلمه أن ترحل بقدر ما يؤلمه الدور الذي أوكل إليه وبكل اقتدار وجهل أداه، مالئًا لفراغها النفسي كما عَنَت، فترة من فترات العبث، مجرد لعبة!

– كل الحكاية أني متعودتش أعوز حاجة ومطولهاش، طول عمري بعشق الرهانات، وانت بالنسبالي كنت رهان مميز، راجل ناجح، عنده المقومات الكافية اللي تخلي أي بنت تدخل في معركة عشان توصله، إضافة لإنه متجوز وفوق ده كله كمان بيحب الست اللي هو متجوزها.

تواصل دقات الكعب من خلفه خفوتها التدريجي، بينما صدى الكلمات يواصل إحراقه، لم تلك السنين إذًا كلها؟ لقد أمضيا معًا فترة ليست بالقصيرة، عاشا كالأشباح يجمعهم قبر واحد، لطالما ظن بأنه

السبب الأوحد في ذلك الفتور المتنامي بينهما، لكنه الآن أدرك أن غير هذا الفتور لعلاقتهما ومهما اختلفت الأوضاع لم يكن ليُكتَب، لقد مكثت فقط لتأكيد انتصارها عامًا بعد عام.

بقيت وهدفها ذروة المتعة، تلك النشوة التي يستشعرها مصارع الثيران لحظة وضع قدمه على رقبة ثوره الصريع بعد فيض جراح أثخنتها فيه سهامه، هكذا فعلت هي، بالبدء من سهم أصاب وفاءه كمحب، تلته إصابات في فرحه وطموحه وثقته في ذاته؛ كانت هي تتابع كل شيء تباعًا، متأهبة للحظة انتشاء أخيرة؛ تسحب فيها القوس عن آخر ما تبقى في جعبتها من سهام لتشهد منه خوارًا يعلن النهاية.

– يمكن لو كنت حبيتني من الأول مكانش الموضوع بقاله لازمة، صدقني يا جلال، عنادك في الأول واعتراضك هما اللي خلوا للتحدي ده طعم.

– إنتي أحقر بني أدمة أنا شفتها في حياتي.

بكل السخط المعتمل في ذاته نطق بها، قالها بجام كراهية الكون، واستقبلتها هي بضحكة مجلجلة تردد صداها موجعًا كل ركن من خلاياه وهي ترفع سبابتها أمامه محذرة:

– مفيش داعي للغلط، خلينا نكون متحضرين، أنا مش حقيرة زي ما بتقول، كل الحكاية أني واحدة صريحة بس وعارفة كويس هيا عايزة إيه.

قالتها ثم أولت له ظهرها استعدادًا للرحيل فصاح مفرغًا رغبته الانتقامية:

– إنتي طالق.

هزت كتفيها دون أن تلتفت نحوه قائلة دون اكتراث:

– مش حابة أسمعها بالطريقة دي، بس حقك.

قبل أن تستطرد وهي تخطو أولى خطوات الانصراف:

– يا ريت ورقتي متتأخرش، إنت عارف عنوان بيتنا على ما أظن.

ثم توقفت وكأنما تذكرت أمرًا ما، ذلك السهم الأخير القاتل الذي التفتت ناشبة إياه بكل قساوة في قلبه وهي تقول:

– نعيم السواق قاللي صحيح إن شريف هو اللي لسه عايش.

رصدت عيناه ابتسامتها التي اتسعت على نحو لن يغدو في مقدوره نسيانه بينما تكمل:

– لما يطلع من المصحة، إبقى خليه يحكيلك عن العلاقة اللي كانت بيني وبينه في الكويت.

بغمزة أنهت جملتها، تلك التي لم تكن بحاجة لأي توضيح، كصاعقة هطلت ممزقة كيانه، شعر وكأن الأرض تميد من تحته، ها هو ذا الثور الجريح يطلق خواره الأخير، تهاوت كل طاقاته الدفاعية دفعة واحدة وكاد أن يتبعها جسده فالتف مستندًا براحتيه إلى النافذة الزجاجية من خلفه متنامٍ لأذنيه وقع ابتعادها، مطأطئ الرأس كتمثال نحت من الخزي، يحمل أطنان عار فوق رأسه، تتردد كلماتها في عقله

بلا توقف؛ ليدرك في كل مرة أنه خسر كل شيء.

من ورائه يقترب الدكتور إبراهيم، يتنحنح معلنًا عن وجوده، ثم يخبره:

– أستاذ جلال، كلموني في المصحة دلوقتي وقالولي أن مدام وداد عايزة تاخد شريف حالًا وتمشي.

صمت، طال صمته حتى بدا وكأنه في عالم آخر، قبل أن يتمتم بنبرة كسيحة:

– خليها تاخده يا دكتور.

قوللهم عندك يسيبوها تاخده وتمشي، وحضرتك كمان تقدر تمشي، أنا مش راجع معاك خلاص، مفتكرش أن في شيء دلوقتي ممكن يتصلح، وهنا انعقد حاجبا الدكتور إبراهيم من ورائه بحيرة بالغة، بينما هو الواقف تتأكد الصورة في ذهنه، لقد خسر حقًّا –وللأبد– كل شيء.

***

ها قد باتت النهاية موشكة، يعلن عنها لون السماء الملطخ بحمرة المغيب عبر نافذة المكتب المطلة على الخارج، وصوت مرشات المياه المشتعلة لتوها في الحديقة الخارجية، والذي اقترن بنظرة الدكتور إبراهيم الطويلة التي تفحص بها ملامحي بعد انتهائه من سرد كافة ما لديه من تفاصيل قبل أن يتمتم:

– متهيألي جه دورك دلوقتي إنت بقى يا شريف تفهمني.

نطق بها ثم تلاها بعبارة مباشرة ختمها بسؤال واضح:

– تاني يوم على طول، لقيتك واقف قدامي هنا لوحدك في المكتب ده، شايل شنطة هدوم صغيرة على كتفك وبتطلب مني إنك تكمل فترة التأهيل، وعلى قد ما فرحت بيك بس كان نفسي أسألك ساعتها إيه اللي رجعك؟

لوهلة تأملته مفكرًا، ها قد تبادلنا الأدوار، من الآن سيترك لي مقعد السرد لأحتله، وسيجلس هو مع عسلية في الغرفة لأول مرة متخذًا دور المستمع لما أقول:

– لو عايز تعرف سبب رجوعي، اسأل ده؟

قلتها وأنا أحرك رأسي باتجاه ذاك الأخير الذي اتسعت عيناه في دهشة وأنا أستطرد موجهًا حديثي إليه:

– إنت يا عسلية السبب الحقيقي ورا رجوعي هنا للمكان.

بنظرة غير فاهمة وبشفتين تلعثم فوقهما سؤاله المقتضب هتف:

– أنا؟

هززت رأسي بالإيجاب وتابعت:

– من تسعين يوم بالضبط، وفي أول اجتماع حضرته هنا إنت سألت سؤال أنا لسه فاكره لغاية النهار ده.

هو ربنا إيه اللي شايفه كويس فيك وعايزك تعيش علشانه، وأعتقد أن الإجابة ممكن تكون واضحة قدامك دلوقتي في وش اللي

بيكلمك، ظل عسلية يتأملني وقد بدت في عينيه بوادر عبرات متجمعة لا تكاد تصدق شيئًا مما يقال، بكل امتناني الحقيقي له كنت أخاطبه موضحًا له الأمر:

– أنا مش بجاملك، حقيقي إنت صدقك اللي اتكلمت بيه يومها هو اللي شجعني على قرار الرجوع، ربنا وضعك في طريقي سبب لولا وجوده كان زماني واخد طريق تاني خالص في حياتي، طريق إسود مفهوش غير حزن وفشل وضياع.

بذات الشفتين المرتعشتين كرر عسلية مرة أخرى مشيرًا إلى صدره:

– أنا؟

هززت له رأسي ثانية في لحظة ارتفاع صوت أذان المغرب من مكان ما حولنا ليمنحنا السكوت، مختزنين لدقائق حفنة من المشاعر داخلنا حتى انتهائه الذي تلته عبارة الدكتور إبراهيم:

– عندك لسة تفاصيل أنا معرفهاش يا شريف، ومحتاج أسمعها، أنا مسألتكش عن السبب اللي خلاك ترتاح للمكان ده أو تفضله عن غيره من الأماكن، أنا سألتك إيه اللي خلاك ترجع.

أفصحت شفتاي له عن ابتسامة إعجاب بنظرته السابرة لأغواري، ثم تمتمت ببطء شديد:

– ينفع تخدع حد، وانت بتقوله الحقيقة يا دكتور؟

ضاقت حدقتاه محاولًا استشفاف غرض السؤال الذي تبعته بآخر استفسار لي:

– صحيح، إنت مقلتيليش يا دكتور بعد الحب، تفسيرهم للكلمتين التانيين كان إيه؟

لم يتغلب سؤالي على فضوله، وبالرغم من أنه استشعر فيه تهربًا من سؤاله أجاب بكامل الاهتمام:

– لما سألت أبوك السؤال ده واحنا مستنيين جدتك تفوق في المستشفى فاكر إنه احتمل أن تكون الحرية بالنسبالك هي سفرك ليه الكويت، وبالنسبة للطير أكدلي أن طول عمرك بتكره الطيور، قاللي أن أخوك ياسين كان من عادته إنه يجيبلها أقفاص عندكوا في بيت الوالدة ويربيها، وإنك كنت كل ما تلاقيه جايب جوز تفتح عليهم القفص وتطيرهم، بس. مش فاكر إنه قاللي حاجة تانية غير كدا.

تمت أقواله ليستعيد مرة أخرى هيئة المنتظر، أخبرته بأن الحقيقة كانت لسان أبي، لكنها –وبرغم كل الصدق فيها– زائفة، ثم تنهدت أمامه ساحبًا من هواء المكان إلى صدري نفسًا عميقًا راقبت خلاله عينيه المترقبة لجواب سؤاله:

«لماذا عدت؟»

***

معها رحلت.

أذكر تفاصيل النظرة الملهوفة التي استقبلتني بها، وتستعيد مخيلتي ذلك الصمت الطويل الذي اقتاد كلينا داخل سيارة أجرة انطلقت عائدة بنا للبيت، يكوّن عقلي صورة للحارة من قبل الوصول، شيئًا فشيئًا كان انتمائي لكل الأشياء يعود، رائحة أكوام القمامة المتراكمة في مدخل الشارع، ارتجاجة أجسادنا فور عبور الطريق غير الممهد على ناصية حارتنا، ميزت بعض السائرين حول السيارة من أهالي المنطقة، وتلك البناية في آخر الشارع الضيق الذي توقف السائق على ناصيته، إنها البيت.

ترجلنا أنا وهي نكمل الطريق سيرًا على الأقدام، أتكئ عليها أو تحتويني بذراعيها، لا أعرف أيهما أدق وصفًا، كل ما عرفته حينها هو أن وقتًا طويلًا مضى منذ غبت عن المكان، لكن شيئًا من صورته الثابتة في ذهني لم تتغير.

أمشي بجوارها في شرود، وتتلقى هي التهاني والمباركات من بعض المارة المعربين عن فرحتهم بعودتي حتى شارفنا الوصول إلى مدخل البناية، منحت الشارع بعيني نظرة أخيرة، قطعتها عند نقطة ما وأنا أشير برأسي نحوها متسائلًا:

– هو فين عم حسن؟ وإيه يا أمي اللي عمل في ورشته كدا؟

بدت أمامي كأطلال خربة، كبيت تعرض لقصف من غضب، كل ما فيها محطم، حتى اليافطة التي كانت تحمل اسمه رأيتها وقد تهشمت

لأكثر من جزء فوق الأرض أمامي، لماذا لم تجب السؤال هي؟ ولماذا لاح الانقباض على وجهها حين أخبرنا أحد جيراننا الواقفين بما جرى؟

حدثنا عن لوثة أصابت هذا الأخير، عن جنون دمر به كل شيء، عن صرخات غضب لم يتسع قلبه لكتمانها، بصعوبة أوقفوه، فتركهم بفورة يأسه جميعًا وابتعد، لماذا ارتعشت يدها التي أحاطت بها خصري؟ هل تدرك أمرًا لا يدركه الآخرون؟ لم أكن أعرف!

تهاديت بعقل يواصل استعادة كامل استيعابه معها صاعدًا سلمنا القديم حتى باب الشقة الذي فتحته وهي تهمس:

– ألف حمد لله عالسلامة.

من حولي لم يبد المكان أبدًا على حاله.

المقاعد مرصوصة بشكل لم أعهده، وفناجين جفت فيها آثار القهوة هنا وهناك، عقلي مجهد إلى حد لا يمكنني وصفه؛ تلاحقه الومضات التي لا أدرك لها أي معنى: أسفلت، مذاق دم، صرير إطارات ممتزج بصرخات، صور دارت بها الأرض من تحتي وكدت أفقد توازني معها، فنفضتها جميعًا عن رأسي وأنا أتمتم:

– دخليني أوضتي وسيبيني مع نفسي شوية، أنا حاسس إني تعبان.

لم تجادلني بكلمة حتى، وصلنا إلى عتبة الغرفة فدلفت أنا وحدي إليها وجذبت الباب من ورائي أغلقه، أيا عالمي الصغير الضيق؛ كفاك عبثًا في رأسي، وأفصح لي الآن وهنا عما لديك.

مجموعة الكتب المتراصة فوق المكتب كما هي، السرير كما هو، وذلك القفص المفتوح الخالي إلى جوار نافذة مغلقة اقتربت نحوها بخطوات مرتابة، وبيد من فضول دفعت درفتيها فانفتحت، فقط لأراها، كالعادة من خلف الشرفة المفتوحة على الجهة المقابلة، تلك التي صنعت نوافذ الكون بأسرها حتى تطل: إيما.

حينها لم تبد لي عيناها كالبحر، حينها لم تكن تبتسم، كانت تنظر مباشرة في عيني وكأنها قبعت هنالك بانتظاري. أنا، أو شخص آخر. من حسرة في عينيها لحظة رؤيتي استعاد عقلي بغتة كل شيء، وفي لحظة واحدة تبدلت من وهم صنعته بخيالي إلى حقيقة:

حقيقة مؤلمة.

***

– قصدك البنت الآسيوية؟

قطع الدكتور إبراهيم وصل خواطري بسؤاله، فرفعت نحوه عيني وهو يستطرد:

– جارتكم اللي كنت بتحبها، كان اسمها إيما متهيألي، هي دي اللي إنت شفتها؟

مع هزة من رأسي اقتنصت له ابتسامة بائسة رسمتها فوق شفتي وأنا أجيبه:

– هي دي الوهم اللي كنت هربان فيه.

أمال نحوي رأسه مهتمًا بعلامة استفهام كبيرة بدت في ضيق عينيه وسؤاله:

– إيه اللي افتكرته ساعة ما شفتها؟

أغمضت عيني وهممت بالرد عليه لولا صوت الطرقات السريعة التي ارتفعت فوق باب الحجرة قبل أن ينفتح كاشفًا عن وجه الكابتن وليد مشرف التأهيل الذي أطل على ثلاثتنا برأسه من الخارج، فاجأته النظرات المتفاجئة فرفع كفًّا بالاعتذار وهو يعقد حاجبيه قائلًا:

– إيه التبريقة دي؟ شكلكوا كنتوا مركزين في حاجة مهمة أوي.

تمتم بها مازحًا دون أن يأته من ثلاثتنا أي رد، فأشار بإصبعه نحو كلينا أنا وعسلية وهو يكمل:

– بعد إذنك يا دكتور، الشباب دول وراهم اجتماع دلوقتي ولازم يحضروه، أنا معنديش استثنائات زي مانت عارف.

ثم اقترب تجاهي بابتسامة على وجهه ومد يده يساعدني على النهوض معه متابعًا:

– وللا انت فاكر اكمنه آخر يوم ليك يعني هتهرب؟

ندت من بين شفتي عسلية ضحكة قصيرة هتف بها:

– لا، يهرب إزاي؟ ده احتفاله النهار ده باليوم التسعين.

في حين تبادل الدكتور إبراهيم معي نظرة طويلة اتخذ خلالها قراره ليتمتم:

– روح عالاجتماع دلوقتي طيب، وبعدها لو في كلام حابب قبل خروجك تقوله نبقى نكمل.

تأبط وليد ذراعي بشيء من غبطة متجهًا بي ومعنا رفيقي حليق الرأس إلى الخارج، توقفت للحظة التفتت خلالها نحو الرجل وراءنا ونظرت إليه، تحدثني نفسي عن شيء أرغب في الإدلاء به.

– ممكن طلب أخير يا دكتور؟

خرجت العبارة مني فأطل عليها بنظرته المتسائلة.

– عايزك تحضر معايا الاجتماع ده.

ابتسم، ظل على الوضع للحظة ثم لم يجبني بغير التنفيذ وهو يتحامل على مسند كرسيه للنهوض مشاركًا إيانا الطريق إلى حيث نتجه، جميعنا صامتون، يحمل كل منا للآخر امتنانًا خاصًا، وحفنة من الذكريات... قطعنا الطريق عبر المكان متجاوزين الباب الزجاجي المزخرف لمبنى التأهيل، ودلفنا إلى غرفة بعينها مفتوح بابها، وترتص فيها الكراسي على شكل دائري يجلس فوقها أولئك الذين نهضوا احترامًا لحضوره مرحبين، فأشار لهم بيديه أن عودوا، ثم إلى ركن بعيد وحده اتجه متخذًا لنفسه مقعد مستمع.

على كرسي شاغر وسط الحلقة جلست، يجاورني كالعادة عسلية، وعلى الجهة الأخرى احتل وليد مقعده الخاص ملتقطًا من فوق المنضدة الصغيرة أمامه كتابًا أزرق احتواه بين كفيه قبل أن يتنهد للحظة من الصمت، ويبدأ:

– زمالة المدمنين المجهولين مجموعة المصحة، أهلًا بيكو في اجتماعاتنا واجتماعنا غير رسمي منتظم، أنا اسمي وليد، مدمن بدير اجتماع النهار ده عشان أنا مبطل ومشربتش خمرة ولا مخدرات.

ليصدح هتاف الترحيب المعتاد بأصواتنا جميعًا.

– هنبتدي اجتماعنا بلحظات سكون نفتكر كنا فين وبقينا فين وندعي لكل مدمن بيعاني داخل وخارج المكان.

أغلق الجمع كالعادة أعينهم، إلا أنا، ظلت عيناي معلقة بوجوههم جميعًا، كنت أبتسم مستشعرًا ذلك التغيير الذي لامسته في روحي، ممتنًا له، ولكونهم سببًا من أسباب حدوثه، لحظات من التأمل منحها للجميع قبل أن يعاود حديثه:

– شكرًا يا جماعة، قبل ما نبدأ اجتماعنا النهار ده بس هندي مهلة للاحتفالات والأفكار المسيطرة.

لأجلي قال عبارته تلك، بات جليًا ذلك في ابتسامته التي اتسعت، وتلك الغمزة التي منحني إياها وهو يتساءل بنبرة فخورة:

– في حد هنا تم تسعين يوم تعافي؟

أنا المقصود هنا، وهذا هو يومي المنشود، الكل من حولي يترقب، خلفي الدكتور إبراهيم، وإلى جواري عسلية الذي حملت أنفاسه المسموعة لي كثيرًا من الإيجابية، ومن حولي الزملاء جميعهم، نظراتهم لي كبطل في يوم انتصاره تلهمني، وتثقلني في ذات الوقت، بكف

رفعته مرتبكًا أمامهم، وعقل تجمعت أسراره كلها فوق لسان مرتبك قرر التصريح أخيرًا بكل الحقيقة، فأدليت:

- قبل ما أبدأ كلامي بس معاكو في سر أخير كنت شايله لليوم ده، تحفظ جوايا خبيته لمدة تسعين يوم، وْجه الوقت المناسب عشان كلكو تعرفوه.

درت بنظري بعد العبارة في وجوههم ثم أكملت:

- أنا ياسين، ياسين جلال عبد العزيز، مدمن.

***

الفصل الأخير

«طير صغير أزرق لم يكن حرًّا كما ظن»

***

لحظتها أدركت كل شيء، امتلك عقلي وعيه الكامل حين رأيتها، أهدتني صدمة كانت البداية لانحراف بمسار تفكيري كله.

إيما، تلك التي لم أكن أعرف حتى اسمها، فتاة البناية المقابلة، والصورة المتجسدة لوهم صنعته، تصنع الوحدة حولنا أشباحًا، كانت هي إحداهن، قبعت هنالك دومًا بوجهها البض المبتسم، وشعرها الحريري الأسود المتطاير.

اعتدت مراقبتها اختلاسًا من خلف نافذتي وهي تسقي نبتة الصبار الصغيرة على حافة شرفتها كل صباح، تخيلت أحاديثًا بيننا تُحكى، وضحكات على امتداد المسافة الفاصلة تتناثر، كانت هي الملاذ الأوحد، والملاك الأنقى الذي لا أخجل مشاركته في أحلامي كل أحاديث الهم والفرح، كنت وحيدًا، وحيدًا قدر ما عانيت لإرضاء الجميع، وحيدًا ملء نظراتهم المتعشمة، وعقولهم الطامحة دومًا لمزيد من الأخذ.

أنا ياسين، الابن الذي حكمت عليه دقائق ثلاث سبقت خروجه

للحياة قبل أخيه بأن يكون الأكبر، ذلك المعتمد عليه في كل شيء، ولا يسمح له بخطأ أو زلة أو حياد، الثابت دومًا برغم انهيار ما حوله، الآن أستعيد إدراكي، وأفهم لم بدت لي الأمور غريبة في بدايتها حين استفقت من غيبوبتي لأجدني داخل ذلك المكان الرطب المغلق بالمصحة، أفهم صلة النوافذ بانقباض بات يصيب قلبي، وأدرك أن صورتها لم تكن محض خيال اصطنعته كما خُيِّل لي.

«إنت هنا في مصحة تأهيل»... «طبيعي اللي إنت فيه ده عشان الفترة اللي قضيتها غايب عن الوعي بعد الحادثة»... «اسمه شريف، قاللي كدا الدكتور من شوية وأنا عنده»... كشريط مسحوب من الذكريات في رأسي انهمرت الكلمات، بينما صرير الباب المفتوح من خلفي يعلن عن دخول أمي، لم ألتفت نحوها، لم تستشعر هي حتى إدراكي لاقترابها إلا من تمتمة خرجت من بين شفتي المرتعشتين:

– اللي في الصالة ده كان عزا أخويا، صح كدا؟

ربتت بيدها على ظهري وهي تنطق اسمي بصوت خفيض متحشرج:

– ياسين.

شعرت بارتجافة جسدي مع لمستها فاستعادت يدها كرد فعل عكسي قبل أن ترتعش نبرة صوتها وهي تسألني:

– مالك يا ياسين؟ إنت خايف مني؟

وعلى نفس وضعي دون أن أحرك منه ساكنًا جاوبتها بسؤال حمل في خروجه من قلبي كل نبرات اللوم:

– كنتي عارفة إن أنا اللي مسافر المرادي مش هو، صح كدا؟

سكتت منعقد في لسانها الرد، فاجأها اكتشافي للأمر بمثل تلك الطريقة التي لم تكن في استعداد لمواجهتها، لم أحاول الكذب هذه المرة، ولم أكن لأتقبله، فاض كيل المراضاة بداخلي فصرحت:

– ليه عملتي كده؟

كنت أغالب عبراتي بصعوبة، إلا أن واحدة منهن انذرفت جارية فوق وجنتي محملة بشعور مختلط بين الوجع وإحساس الضياع.

– عشان متضيعش انت كمان مني.

بصوت انتحاب نطقت بها، شعرت بدفقات الضعف التي امتلأت بها كل خلية من خلاياها وهي تتابع:

– عشان متروحش زي ما راح أخوك، وتسيبوني هنا لوحدي، بعد ما كل حاجة في الدنيا سابتني.

ندت من بين شفتي ضحكة ألم متهكمة وأنا أتمتم:

– وهو أنا إيه اللي فاضل مني دلوقتي عشان ميسيبكيش؟

ياسين المخدوع اللي عاش بمزاج اللي حواليه لحد ما اتاخدت منه في الآخر كل حاجة؟ وللا شريف اللي مات وقلتيلهم هناك في المصحة إنه لسه عايش، عشان أفضل قدام الناس كلها مجرد سر، عايش

برضو بمزاج حد شايف إن الحب مجرد امتلاك؟

أجبرتني على الالتفات نحوها لتتلاقى أعيننا وهي تحيط بكفيها رأسي ناظرة لي بعينين محمرتين ونبرة تهدجت من فرط البكاء:

– بلاش تقول كدا يا ياسين، بلاش تقول كدا يا حبيبي، دانا معادش ليا في الدنيا دي حد غيرك، متتغيرش إنت كمان، أرجوك، بلاش تتغير.

لم تطرف عيناي أمامها، وكأن مشاعري كلها سلبت مني في لحظة، كنت أراها كالقدر أمامي يعاتبني على اختياراته.

– أنا مكنتش حمل خيانة أبوك، بس أما سيبته وخدتكوا معايا بقيتوا العكازين اللي بتعكز عليهم عشان أفضل واقفة، إنت متتصورش أد إيه سفر أخوك الله يرحمه حسسني بعجز، حسسني بأني طرف خسران ضعيف، ممكن أبسط ريح بسهولة تدمره، وتخلي كل اللي استنوا اللحظة دي يدوسو عليه.

خبيت ده كله ورا كلمة عادي اللي قلتهاله، بس من جوة أنا كنت موت، وطول ما هو عنده هناك كنت بسأل نفسي: إزاي اللي يخون هو اللي يكسب في الآخر كل حاجة؟ إزاي أبقى بعد اللي عملته ده كله الوحيدة المجني عليها؟

لم أكن أتحاشى النظر في عينيها، كنت أتحاشى الماضي المطل منهما أمامي كئيبًا موحشًا كظلمة الحجرة التي احتوتنا، بينما هي لا ترى من فرط دموعها نظراتي تستطرد:

– عشان كدا أما رجع، مهمنيش أي شيء غير إنه يفضل، مهمنيش غير إني أرجع متعكزة بوجودكوا إنتوا الاتنين من تاني، مهما كان الوضع، ومهما كان اللي هيتعمل في سبيل ده إيه.

– بس احنا مش عكازين للأسف يا أمي، احنا بني آدمين.

تمتمت لها بالكلمة فانخفضت عيناها مطرقة، ودموعها ما زالت منهمرة تثقل أنفاسها وتمنح نبرتها الكثير من الأسى:

– لو عرف إنك عايش كان هياخدك، عشان إنت اللي كان مستنيه يروحله يوميها، لو عرف إنك عايش كان هيلومني على موت شريف بحجة إنها الأمانة اللي أنا مقدرتش برغم تحذيراته أحافظ عليها، وأنا مكانش ينفع أبدًا أسمح بده، مكنتش هقدر أبدًا أستحمله، كفاية عليا كسرة واحد، كسرة تانية معناها موت.

مال طرف شفتي لقولها، لم أكن لأقسو عليها، بيد أن الماضي بتفاصيله التي استرجعها عقلي كانت على نفسي أشد قساوة، وباتت معها نظرتي للأمور أشد وضوحًا وأنا أنبس:

– شريف كان عنده حق يا أمي للأسف، شريف فعلًا كان عنده حق.

***

قبل تسعين يومًا فقط.

داخل السيارة المنطلقة بنا في طريقها نحو المطار جلست

يجاورني من أمام المقود شريف، يطل كل منا نحو الآخر بين الحين والآخر مترقبين أينا يبدأ جملته الأولى، يبدو الشرود جليًا على وجهي، وازرقاق أسفل عينيه بات واضحًا مع نحوله الشديد، سبقني هو بعد برهة من الصمت بها متمتمًا:

– مرتاح يا ياسين لقرار السفر ده؟

بهزة كتف لم أرغب أن يكشف زيف لامبالاتي فيها أجبته:

– شايف إني محتاج أعمل كده.

تابع الطريق أمامه وهو يقول:

– الموضوع مش بالشوف يا أخويا، الموضوع إحساس، إنت حاسس أن ده الأحسن ليك وللا لأ؟

تأففت مشيحًا بوجهي بعيدًا عنه تجاه نافذتي المجاورة وأنا أهتف حانقًا على تضييقه الخناق بأسئلته حول روحي:

– إنت عايز إيه دلوقتي يا شريف؟ إحنا مش اتكلمنا في الموضوع ده ألف مرة قبل كدا؟ وبعدين ما انت وافقت عالاتفاق ده معايا من الأول.

– أنا مكسبي إني أبعد، وانت مكسبك إنك تفضل هنا مع أمك وتعيش حياتك براحتك بعيد عن سيطرة أبوك اللي أكيد مستنيك المرادي بخطط تقييد ووعد بجولة ما بين المصحات ودكاترة الإدمان، عمال بتعيد وتزيد في الكلام تاني ليه دلوقتي؟

رمق انفعالي بنظرة لا مبالية، وهو يلوك قطعة لادن في فمه تفلها عبر نافذته على الأسفلت المتآكل من تحتنا بإطارات السيارة المنطلقة فوقه ثم باقتضاب قال:

– عشان أمك عارفة دلوقتي أن إنت اللي مسافر مش أنا.

أدرت نحوه رأسي بحركة حادة فرفع كفًّا أمامي مستدركًا:

– متبصيليش، أنا مقلتلهاش حاجة، هي عرفت لوحدها.

امتلكني الاضطراب وأنا أنظر إليه مطالبًا منه التوضيح فتابع:

– امبارح وأنا راجع البيت بليل شفتها بتقلب في شنط السفر اللي المفروض إنها بتاعتي، وانت شايل جواها الباسبور فأكيد شافته.

سألته:

– وقالتلك حاجة؟

– توء.

أصدر بفمه الصوت وهو يهز رأسه نافيًا فعقدت حاجباي وأنا أتمتم مرتبكًا:

– تبقى معرفتش، مش شرط يعني تكون شافت الباسبور.

التقط نفسًا عميقًا من الهواء وهو يؤكد:

– لأ شافته، وبعدين مش دي المشكلة عمومًا ما هي كدا كدا،

كت هتعرف لما تلاقيني أنا اللي راجعلها كمان ساعتين.

زادني أسلوبه الغامض حنقًا فصحت به:

– طب إنت بتأكد منين إنها عرفت؟

مال نحوي يرمقني بنظرة جانبية، وعيناه لا تزالان على الطريق أمامه قائلًا:

– من عينها النهار ده وهي بتسلم علينا.

لم أستوعب ما يقصده فاستطرد:

– مش فاهمني، طيب، خليني أستلف سؤال قلتهولي بنفسك من مدة جايز تفهم: «ليه مستهون بمشاعر كل الناس اللي بتحبك؟».

رمقته بنظرة تهكم وأنا أرد:

– وخليني أنا المرادي أكرر ردك عليا ساعتها، عشان مفيش حد أساسًا بيحبني يا شريف.

بشيء من امتعاض لوح بيده الحرة لي مغمغمًا:

– متخلطش الأوراق يا ياسين وترد ردود مش لايقة عليك، السؤال أصلًا مش واحد، والوضع المرادي مختلف.

أنا مش زيك بقيس الحب على تصرفات الناس وطريقتهم في التعامل أو من اللي باين منهم، أنا بحسه في عيونهم، ولما أقولك

النهار ده أن أمك بتحبك بجد وسفرك حقيقي فارق معاها يبقى بقولهالك وأنا متأكد ومن منطلق إنك لازم تعرف ده أيا كان.

أمك النهار ده كان في عنيها حزن كبير عليك، فاعمل حساب ده عشان متجيش تحس بخنقة هناك بعد ما تكون فعليًا خدت القرار.

تمتمت محاولًا اعتراضه:

– طب ما نفس الحزن ده كان في عنيها يوم مانت سافرت، وأنا قلتلك عليه برضو، وبرضو عملت اللي في دماغك واستمريت في السكة اللي إنت عايز تمشي فيها.

مرة أخرى هز رأسه بالنفي ثم قال:

– غلط، ده مش زي دا، حزنها اللي في الأول مكانش عليا أنا كشريف، كان على إنها خسرت مصدر قوة بتنتقم بيه من أبونا اللي سابها زمان واتجوز عليها واحدة تانية.

زفرت في اختناق وأنا أهتف:

– وايه اللي يخلي سبب الحزن النهار ده مختلف؟ ما يجوز يابو الإحساس هو هو.

بنظرة جانبية أخرى رمقني وهو يقول:

– متتريقش عليا عشان أنا فاهم في الحجات دي أكتر منك بحكم خبرتي في الناس، وسيبك من كتب علم النفس اللي بتحب تقرا

فيها دي عشان مش هتبينلك أبدًا الفرق ما بين حب الامتلاك الناتج عن أنانية أو رغبة انتقام، وبين الحب الحقيقي الخالص اللي ملوش فعلًا غرض تاني.

إنت أمك بتحبك يا ياسين، بتحبك لشخصك ولكينونتك، مش لمجرد بس أن إنت ابنها، بس يمكن عشان طبيعتك الهادية من زمان، أو عشان إنت الوحيد اللي عمرك ما خذلتها أو اتخليت عنها زي ما بقيت الناس عملوا.

كانت كلماته تعتصر قلبي اعتصارًا في ذلك الوقت، شعرت ببرودة انقباضها عليه وعلى أوجاعي الكامنة فيه.

– لا، لا تحاولوا التأثير علي، بالله عليكم دعوني، دعوني أمتلك لمرة واحدة قراري حتى وإن كنت مخطئًا فيه، دعوني أنزع قيودكم الملتفة حول عنقي ولو لمرة واحدة حتى أشعر بقليل من الحرية، ثم أصدروا بعدها الحكم بإعدامي وأهيلوا علي التراب، أحتاج إلى هواء غير هوائكم الملبد بسحب ظروفكم وخياراتكم ووجهات نظركم، أحتاج لأن أكون حرًّا بالمعنى الحقيقي للحرية، لا بمعناها السطحي المرتبط فقط برضاكم والمتعلق دومًا بأحاسيسكم وردود أفعالكم تجاه اختياري.

بنبرة محتدة أخبرته محاولًا تغليظ قلبي:

– حتى ولو، إيه يعني؟ ما كل حاجة بتتنسي، هيا يعني كانت ماتت لما أبونا سابها؟ وللا كت كرهتك أو غيرت تعاملها معاك بعد كل اللي عملته سواء بسفرك أو بإدمانك للمخدرات اللي

بتتعاطاها دي؟ بالعكس، ده إنت بقيت واخد حقوقك بعد ده كله أكتر مني.

ثم استحل البكاء نبرتي وأنا أتابع بانفعال:

– ده حتى يا أخي البنت اللي أنا بحبها، لما خطفتها مني قصاد عنيا ملقيتش إيد فيكوا تطبطب، محدش حس أصلًا، لأ وإيه؟ راحت تاني يوم على طول تخطبهالك، كإنك قديس، مفترض اللي تشاور عليه بس بدون أي تفكير يتحققلك، عايزني أنا ليه اللي أبقى على طول حاسس وعامل حسابي وواخد بالي؟ ياخي يلعن أبو الناس كلها.

نطقتها بالقهر الخالص في قلبي لكل شيء، وشعر هو بالتأثر حيالي فزاد من سرعة السيارة وهو يغلق عينيه للحظة قبل أن يفتحهما مغمغمًا:

– يابني متضحكش على نفسك، متصبش روحك في قالب الضحية اللي هيخليك عايش طول عمرك في وهم كبير.

قالها ثم استطرد بصوت عالٍ مع إشارات يديه وكأنما يحاور الطريق:

– إنت مش فاهم، وبتحكم عالواقع بمنظور غلط.

– مين اللي فهمك أن أمك بتعاملني كقديس؟ يا غبي. أنا أمك بتقايض عليا في انتقامها من أبوك، بتميّل لي كفة اختيارها هي عن اختياره، عشان متحسش إنه كسب منها حاجة، ومش من

منطلق حبي لأ، دي عايزاني أفضل حتى ولو مستمر في إدماني، منا قلتلك هيا كت زعلانة من إيه...

ولو عايز دليل أوضح بص لترابيزة الصالة اللي بقت على طول بتسيب حقن دواها والفلوس فوقيها، بالرغم من أن أبوك أنا سامعه وهو في التليفون قبل رجوعي بيحذرها من الأماكن والأشخاص والأدوات لأن ده خطر عليا زي ما الدكاترة هناك نصحوه، وإن الحجات دي خطوة أولى بالنسبالي بتحفز فكرة التعاطي في عقلي.

سكت للحظة ملتقطًا أنفاسه قبل أن يكمل:

– وبالنسبة لإيما اوعى يتهيألك إني مكنتش واخد بالي من تتنيحك طول اليوم في الشباك عليها، بس أنا حبيت بالطريقة أفوقك، وأعرفك أن الناس مش ملايكة زي مانت شايفهم، البت فاضية وقالت تجيبك بالنظرات، وحيدة بقى وعايزة اللي يسندها في غربتها بأي طريقة حتى ولو شمال، يا راجل دي مخدتش في إيدي غلوة وكنت معاها في الشقة.

قالها قبل أن ينفجر ضاحكًا على نحو أربكني ليكمل من جديد:

– وسيادتك عايش في عالم حالم أوي، مصدق حدوتة كيوبيد اللي واقف في السما مستني يرشق سهم الحب لا مؤاخذة ف... فعيونكو.

دا أنا أتحداك يا ياسين إنك معرفتش اسمها أساسًا غير لما أنا قلتهولك، هايم بس مع النظرات والابتسامات اللي كت

بتبعتهالك، بت شمال وبتشتغل أخويا، إيه؟ أسيبها؟ وأنا في الآخر بتسلى، لا بحبها، ولا هتجوزها، ولا أي حاجة.

الغرض الأساسي كان في الدرس اللي اتمنيت إنه يوصل لك، لما تشوف ملاكك المصون سهلة في حضن واحد تاني، وتعرف أن اللي انت معيش نفسك فيه ناحيتها ده مش حب، إنما مجرد احتياج بتملى بيه فراغك النفسي مش أكتر.

كشلال من الحمم الملتهبة فوق رأسي كانت كلماته، كل خلية في كياني كانت تستصرخه أن اصمت، كفاك تدميرًا لكل الحقائق التي اعتنقتها، كفاك هدمًا لكل الأساسات، خرجت بصوت كالسقوط كلماتي وأنا أتمتم بمرارة:

– كفاية بقى، كفاية، أنا مش عايز أعيش في بير القرف ده.

مد يده مربتًا فوق قدمي، وبلهجة كانت صادقة حينها قال:

– مفيش حب بيتولد من بعيد لبعيد، متزعلش مني يا ياسين، أنا مش عايز بكلامي ده أضايقك، أنا عايزك بس تبطل تبص للحياة بعينك، من غير ما تدي اعتبار لعقلك ولا إحساسك إنهم يوجهوك.

أشحت بوجهي بعيدًا مرةً أخرى عنه مندفنًا في ألمي وتركته يتابع:

– متعملش زي الناس اللي شايفة من بعيد إنك بتجيب أقفاص الطيور وبتربيها من منطلق الحب، أنا وانت اللي عارفين بس إنك مبتعملش كدا غير متعة في حبسها وتقييد حريتها بسبب

عقدة زمان، وقصاد ده أنا كل ما هشوفلك قفص، هطير كل عقدك المحبوسة فيه... فاهمني يا ياسين؟ كل عقدك!

***

للحظات ربما اقتربت من تخطي دقيقة كاملة، ظلت أعينهم معلقة بي، دكتور إبراهيم، كابتن وليد، عسلية، وكل من احتوتهم معي مساحة الغرفة، جميعًا أطلت من نظراتهم الدهشة، وعقولهم ترفض التصديق، بدو أمامي كتماثيل جامدة نُحِتَت من صدمة، اختبرت شعورًا كهذا قبلًا، بل إنني لم أعهد ربما في نهاية كل طرقي الماضية شعورًا غيره: الوهم.

إدراكك فجأة أن كل ما تراه ليس سوى صورة من زيف صنعها عقلك، لم أُطِل عليهم في صمتي، وبدا لهم صوتي كأنما ينبعث من باطن عقولهم المزدحمة بأكوام الأكاذيب وأنا أبدأ في خوض الحكاية لهم من مشهدها الأول.

من هناك، داخل إحدى الشوارع الجانبية المحفوفة بالأشجار، في سيارة مستعملة قديمة الطراز طفل لم يتجاوز بعد السابعة من عمره، يحتويه المقعد الخلفي وبجواره شقيقه التوأم يبكي، لا تطل عيناه غير جزء من كتف والده الجالس أمامه، وأطراف أصابعه تلك التي كان ينقر بها في رتابة وعصبية فوق إطار المقود، تهرب من رؤية تلك الكراهية المنبعثة في عين أمه، تهرب من أن يفهم، أو يسمع أي شيء، لكنه مع كل الأسف فعل، كنت أتكلم وكأني أرى المشهد أمامي متجسدًا برغم سنوات مرت عليه، أذكر أنفاسي المختنقة اضطرابًا وخوفا، النقاش المحتد فيما بينهما، وكلماتهما التي تعلن نهاية كنت

أخشاها، وإن كنت حينها لا أعلم حقًّا ما تودي إليه.

– بلاش يا وداد نكمل عالغلط بغلطة أكبر منه، مش إحنا لوحدنا اللي هندفع التمن، متحملنيش ذنب اختيار مفكرتش يوم ما اختارته إلا في نفسك.

– أنا مفيش حاجة هتغير رأيي يا جلال، طلقني.

تلك اللوحة الخشبية الصغيرة، المعلقة في مدخل البناية المجاورة لي تحمل عبارة لا أفهم معناها: (مأذون شرعي)، سرحت هروبًا منهما في استهجاء حروفها عبر زجاج نافذتي المغلق، والذي صنعت أنفاسي المتوترة فوقه هالة من البخار، الشارع بسيط هادئ، تلقي الأشجار فيه ظلالها فوق الأرض وعلى وجهي، وتتخلل أوراقها خيوطًا من أشعة الشمس.

هبط كلاهما من السيارة مغلقين الأبواب وراءهما، ليختفيا أمامي في مدخل البناية، وليمتلكني أنا المزيد من الاختناق، أجفلني ذلك الصوت الذي علا فجأة من خلفي فاستدرت برأسي تجاهه، عصفور أزرق اللون، لم أر شيئًا بمثل روعته في حياتي، حط على الجزء الخلفي من السيارة مداعبًا بمنقاره جناحيه قبل أن يحلق بهما من جديد.

تابعته ببصري وهو يحوم في الأرجاء من حولي قاطعًا سلاسل الشمس الذهبية، يهبط فوق الأسفلت ملامسًا الأرض بقدميه متقافزًا فوقها يخطو نحو شيء ما التقطه ثم ارتفع مختفيًا عند آخر مدىً لرؤيتي في السماء.

– حسدته ساعتها، كنت حاسس إني محبوس جوة قفص كبير

عالأرض، مش قادر أتنفس حياتي، وهو حر، منطلق، العالم كله مفتوح من حواليه، اتمنيت أكون مكانه، طاير، مفيش حواليا إطار ولا عالم أو حدود...

قطعت الحديث ملتقطا أنفاسي، أرصد نظراتهم التي غابت بين تفاصيلي وأنا أستطرد:

– لما أبويا وأمي انفصلوا، أنا وشريف اتفاجئنا بإن كل حاجة اتغيرت... الدنيا كأنها بقت أضيق، حتى حضن أمي مبقاش فيه نفس مساحة الدفا بتاع زمان، بقت عصبية في أغلب الوقت، وهو كان بيجيلنا زيارات من فترة للتانية كضيف مش أكتر، مع كل سنة بتمر عليا كبرت فيها كنت بحس الدنيا بتصغر، انهمرت أحلامي أمامي في تلك اللحظة كمطر من بلورات ظلت تتهشم على الأرض في خيالي واحدة تلو أخرى: الحب، الحرية، وطير صغير برغم جماله رأيته لعنة، بت أُفرِغها على كل طير سواه... عشت وحيدًا داخل قوقعة من عدم الرضا، منعزلا في ذاتي عن الآخرين، ألعب الأدوار كما كُلِّفت بها، لا كما أريد...

تخرج الكلمات من بين شفتي كما كنت أسمعها، وكما كانت تُقَال: «إنت الكبير يا ياسين لازم تكون عاقل»، «إنت راجل يا ياسين لازم تسندني»، «إنت شاطر يا ياسين، لازم تطلع الحاجة اللي إحنا عايزين نشوفها»...

مفضليش مساحة أقدر أتنفس فيها غير أوضتي الصغيرة اللي اتبقى منها سرير فاضي بعد سفر أخويا، مع شوية كتب، وقفص صغير بفرخ جزء من كبتي في عصافيري اللي حابسها

جواه، جنب شباك بيطل على بنت صنعت من وجودها طموح ساذج ليا، طلع في الآخر سراب برضو، زي كل الحاجات التانية اللي جريت وراها: مجرد وهم.

هل كانت دموعًا تلك المتجمعة فوق أعينهم؟ أم إنه التماع في عيني أنا رأيت به الأشياء؟ لا فارق. سأواصل الكلام دون اعتبار لشيء من حولي:

– شريف أخويا مرة قاللي إن الحقيقة مش شرط تكون هيا الحاجة اللي شايفينها بعيوننا. عشان الحقيقة تعريف لشيء أعمق من ده بكتير. بيتقاس بميزان أحاسيسنا وشعورنا تجاه الناس اللي بنقابلهم. والحاجات اللي بيعملوها.

التقطت من الهواء نفسًا عميقًا آخر، ثم أكملت:

– وأما جيت هنا، اتعلمت أن إرضاء الآخرين مبيئذيش غير صاحبه، وإن الخطوة الأولى في بداية أي طريق جديد هي البعد عن الأماكن والأدوات والأشخاص اللي أذونا نفسيًّا، واللي حاولنا كتير نغيرهم ومقدرناش، لأن زي ما واحدة من قواعدنا الأساسية بتقول: إن من الحماقة والجنون تكرار نفس الأخطاء، وتوقع نتائج مختلفة.

التقت عيني بعين عسلية في تلك اللحظة، هذا الرفيق الذي أمست تشعرني ملامحه بالراحة، ابتسمت له امتنانًا بينما لحديثي أواصل:

– يمكن الصدفة هي اللي جابتني بسبب حقنة مخدر خطفتها من جيب أخويا عشان أهرب بيها من الدنيا في يوم الحادثة،

بس من أول اجتماع حضرته معاكوا هنا، شفت أسلوب جديد للتحرر، وفهمت حقيقي معنى الحرية، الحرية اللي بجد، حرية الاعتراف والتصالح النفسي اللي بين كل واحد فيكو ونفسه.

قبل أن أستدير برأسي نحو الدكتور إبراهيم الجالس ورائي وعلى محياه نظرة خاصة مزجت بين حفنة من المشاعر وأنا أستمر:

– وفي اليوم اللي خرجت فيه، اكتشفت إن شريف الله يرحمه كان صح، أنا كنت مغمي قلبي بنفس العين اللي بشوف بيها، عشان كدا رجعت...

لحظة صمت، تدور عيني خلالها في أركان المكان، أملأها بكل تفاصيله، بكل الوجوه، بكل المشاعر، ثم أتابع ساردًا للحكاية نهايتها:

– إنتوا علمتوني هنا إزاي أكون حقيقي، وعرفتوني قد إيه التحفظات ممكن تسلبنا فعلًا كل قيمة حلوة في الحياة.

أنا ياسين مدمن كل الوهم والأكاذيب اللي كان عايش فيها، وبقاله النهار ده تسعين يوم متعافي بسببكم، فشكرًا لكل الأقدار التي جمعتني بكم، وآسف لو كنت طولت.

أنهيت الحديث فصمتت، وسكن المكان بأكمله إلا من صوت الأنفاس التي امتلأت بها الصدور، قبل أن يرتج بتصفيق طويل هادر، علا صوته فوق كل الأصوات وبمنتهى القوة.

ها أنذا وقد أدركت أن ما يربطنا بفلك الكون خيط لا يُرَى، معقود طرفه في الأقدار، وله بين أيدينا طرف آخر، يمكننا بقدر من

الإيمان، من الرضا، ومن الحب تقبله...

اللهم امنحني السكينة لتقبل الأشياء التي لا أستطيع تغييرها، والشجاعة لتغيير الأشياء التي أستطيع تغييرها،

والحكمة

لمعرفة الفرق بينهما.

***

رامي أحمد

2018/1/24

كما نثق بكتابنا نثق بصوتك / هنا نصغي إليك!

الهالة للنشر والتوزيع
AL HALA PUBLISHING & DISTRIBUTION

تواصل معنا، ونحن نسمعك!
https://www.facebook.com/alhalapublishing
info@alhalapublishing.com